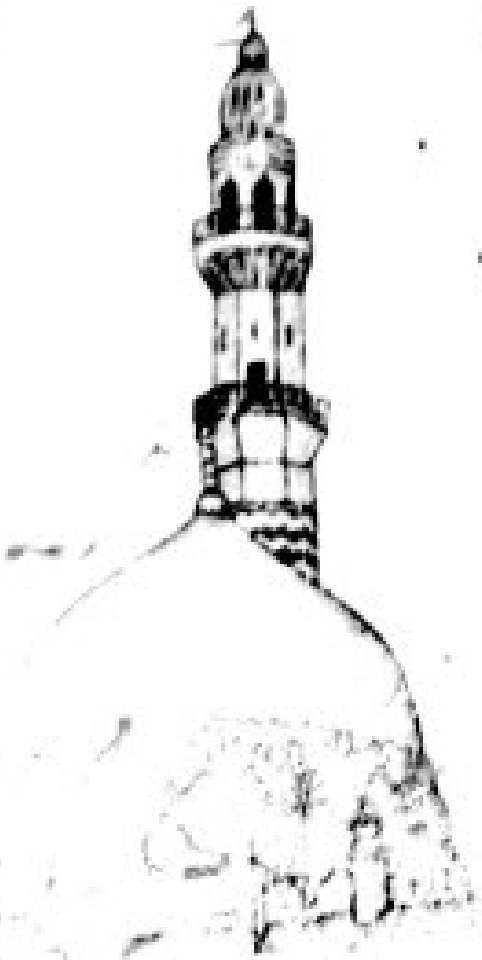

علوم القرآن الكريم

تأليف د. غانم قدوري حمد

الفصل الأول
نزول القرآن الكريم

المبحث الأول: لمحة تاريخية عن حياة النبي قبل البعثة

عاش محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه الصلاة والسلام منذ ولادته في مكة - في شهر ربيع الاول من عام الفيل «٥٧١م»[٦١] - حتى بلغ الاربعين، عيشة لا تكاد تختلف عن حياة اهل مكة في ذلك الزمان، فلم يعرف عنه شيء من غريب الامور، ولم يدع هو شيئاً من ذلك، بل أسهم في تلك الحياة وعاشها، فقد رعى الغنم وهو شاب يتيم يعيش في كنف عمه ابي طالب[٦٢]، وصحب عمه الى الشام في تجارة، وهو ابن اثنتي عشرة سنة[٦٣]، وحضر حرب الفجار التي وقعت في اطراف مكة، بعد عام الفيل بعشرين سنة[٦٤]. وحضر حلف الفضول الذي عقد بعد حرب الفجار بقليل[٦٥] وعمل في التجارة بأموال السيدة القرشية خديجة بنت خويلد، وهو ابن خمس وعشرين سنة[٦٦]، وتتوجت تلك الصلة بزواجه من السيدة خديجة[٦٧]. وأثمر ذلك الزواج بيتاً سعيداً وانجب اربع بنات: زينب، ورقية، وفاطمة، وام كلثوم، وابنين: القاسم وعبد الله[٦٨]. وأسهم بحكمته وهو في الخامسة والثلاثين في فض النزاع الذي نشب بين قبائل قريش حين أعادوا بناء الكعبة المشرفة.[٦٩].

وهكذا عاش بين اهل مكة حتى بلغ الاربعين، ولم يطرأ على حياته شيء غير مألوف، ولكن كان هناك شيء واحد يختلف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

---

(٦١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/١٠٠ - ١٠١، وانظر محمد عبدالله دراز: مدخل الى القران الكريم ص٢٢.
(٦٢) ابن سعد : الطبقات ١/١٢٥.
(٦٣) المصدر نفسه ١/١٢١.
(٦٤) المصدر نفسه ١/١٢٨.
(٦٥) المصدر نفسه ١/١٢٨.
(٦٦) المصدر نفسه ١/١٢٩.
(٦٧) المصدر نفسه ١/١٣١.
(٦٨) المصدر نفسه ١/١٣٢.
(٦٩) المصدر نفسه ١/١٤٥.

اهل مكة، في أثناء حياته قبل البعثة وقبل نزول القرآن عليه، وهو اجتنابه مظاهر الانحراف الخلقي والديني والاجتماعي الذي كان فيه اهل مكة في تلك الحقبة، فقد عاش قبل البعثة كما وصفه ابن سعد: «شب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ابي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من امور الجاهلية ومعايبها ولما يريد به من كرامته، وهو على دين قومه، حتى بلغ ان كان رجلاً افضل قومه مروءة، واحسنهم خلقاً، واكرمهم مخالطة، واحسنهم جواراً، واعظمهم حلماً وامانة، واصدقهم حديثاً، وابعدهم من الفحش والاذى ومارُئي مُلاحياً ولا مماروياً احداً، حتى سماه قومه الامين، لما جمع الله له من الامور الصالحة فيه، فقد كان الغالب عليه بمكة الامين»[٧٠].

وبعد ان قارب الاربعين من عمره حدث في حياته ما قلب تلك الطمأنينة الى مكابدة ومجاهدة، وذلك الوئام الاجتماعي الى عداوة ومحاربة، على غير توقع منه لذلك الحدث، ومن غير اعداد، ذلك الحدث الذي أثر في حياته وحياة اهل مكة والعرب والناس أجمعين، هو نزول القرآن الكريم عليه، فكيف كانت بداية ذلك الحدث العظيم؟

المبحث الثاني: كيف ابتدأ نزول القرآن؟

تعطينا الروايات التاريخية والاحاديث الصحيحة المروية وصفاً كاملاً لبدء نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقل البخاري في الجامع الصحيح[٧١] وغيره من المصادر المعتمدة[٧٢]، عن محمد بن شهاب الزهري «ت١٢٤هـ». عن عروة بن الزبير «ت٩٣هـ على خلاف». عن عائشة ام المؤمنين «ت٥٧هـ» انها قالت:

---

(٧٠) المصدر السابق ١/١٢١.

(٧١) صحيح البخاري ١/٥.

(٧٢) وردت هذه الرواية في اصح كتب الحديث والتاريخ، في الطبقات الكبرى لابن سعد ١/١٩٤، والسيرة النبوية لابن هشام ق١/٢٣٤، والمصنف لعبدالرزاق بن همام الصنعاني ٥/٣٢١، وصحيح البخاري ١/٥ و٦/٢١٤، والفتح الرباني في ترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيباني ٢٠/٢٠٧، وصحيح مسلم ١/٩٧، وتاريخ الرسل والملك للطبري ٣/١١٤٦.

«كان اول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة «أو الصالحة» في النوم. فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح، قالت: فمكث على ذلك ما شاء الله، وحُبِّبَ اليهِ الخلوة فلم يكن شيء أحب اليه منها، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع الى اهله فيتزود لمثلها. حتى فَجِئَهُ الحق وهو في غار حراء.)

فجاءه الملك فقال: اقرأ[٧٢]، قال: ما انا بقارىء، قال: فأخذني فغطّني[٧٤] حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرأ، فقلت: ما انا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم. علّم الانسان ما لم يعلم». فرجع بها الرسول صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني[٧٥]، حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة واخبرها الخبر، لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله ابداً، انك لتصل الرحم وتحمل الكَلّ وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد عبدالعزى، ابن عم خديجة، وكان امرءاً تنصر في الجاهلية. وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء ان يكتب[٧٦]، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن اخيك، فقال له ورقة يا ابن اخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس[٧٧]

---

(٧٢) قوله «اقرأ» لا يعني حتماً ان جبريل عرض على رسول الله شيئاً مكتوباً. كما روى ذلك ابن اسحق مرسلاً: فجاءني جبريل، وانا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب». «ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٢٣٦». فلعل قوله «اقرأ» كان تنبيهاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى ما سيلقى عليه، فيكون ذلك «تلبأ بقراءة ما سيلقى عليه من القرآن». «انظر تفصيلاً لذلك: محمد عبدالله دراز: المختار من كنوز السنة النبوية ص٢١».

(٧٤) الغط: العصر الشديد والكبس «لسان العرب مادة غطط».

(٧٥) زملوني معناه: دثروني «انظر فتح الباري ١/ ٢٤».

(٧٦) جاء في رواية ان ورقة كان يكتب الكتاب العبراني، وفي اخرى الكتاب العربي ولا تناقض بين الروايتين، «لان ورقة تعلم اللسان العبراني والكتابة العبرانية، فكان يكتب الكتاب العبراني، كما كان يكتب الكتاب العربي». «انظر ابن حجر: فتح الباري ١/ ٢٥».

(٧٧) الناموس: صاحب سر الوحي: والمراد به جبريل عليه السلام «انظر لسان العرب مادة نمس، وعمدة القاري» العيني ١/ ٥٢».

الذي نزل الله على موسى ياليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيا اذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أَوَ مُخرِجيَّ هُم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عُودِيَ، وان يدركْني يومُك أنصرْكَ نصراً مؤزراً ثم لم ينشب ورقة ان توفي، وفتر الوحي».

وتشير هذه الرواية الى ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يجابهه الملك من غير ممهدات نفسية تهيئة لتحمل اثر ذلك اللقاء غير الاعتيادي بين عالم البشر وعالم الروح. فكانت اولى علامات النبوة الرؤيا الصادقة، حيث يتحقق في النهار ما يراه في نومه ليلاً، بنفس الضوء، واضحاً مثل ضوء الفجر من جهة المشرق، حين يسفر الصباح، ولا شك في ان هذه الحالة قد لفتت نظر النبي وأثارت انتباهه. ولا تحدد الرواية الفترة التي استمرت فيها هذه الحالة (٧٨).

والخطوة الثانية باتجاه النبوة الكاملة هي الخلوة، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجد ميلاً في نفسه الى الانفراد والابتعاد عن ضجيج الحياة والناس ويجد ان خير مكان مناسب لذلك كان في الجبال المجاورة لمكة في غار حراء (٧٩). فكان يمكث هناك الليالي الكثيرة، ولا تحدد الرواية مقدارها، يتفكر ويتأمل ويتعبد على صورة لا تحددها الرواية ايضاً.

وبينما كان على تلك الحال، وهو في غار حراء، واجهه الملك الامين جبريل عليه السلام بالقاء، ولم يُلقَ اليه اول آيات نزل بها القرآن الا بعد ان هيأ نفسه بذلك الغط ـ العصر الشديد ـ الذي كان يجهده. ولا عجب ان تشير الرواية الى ان النبي صلى الله عليه وسلم رجع الى بيته وفؤاده يرجف ونفسه خائفة فان هول المفاجأة وشدة الموقف لتذهب بالالباب ولكن «الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالته».

---

(٧٨) حكى البيهقي ان مدة الرؤيا كانت ستة اشهر. انظر ابن حجر فتح الباري ١/٣٧.

(٧٩) حراء ـ بالمد بكسر الحاء، جبل من جبال مكة على ثلاثة اميال، في اعلاه قلة شامخة ذات طول، وفيه الغار الذي كان يأوي اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ انظر ياقوت ـ معجم البلدان ٢/٢٣٣. ويسمى ذلك الجبل اليوم ـ بجبل النور ـ انظر كتاب: من نفحات الحرم، لعلي الطنطاوي ص١٣٨ ومدخل الى القرآن لمحمد عبدالله دراز ص٢٧. وانظر وصفاً ممتعاً للجبل والغار في كتاب «في منزل الوحي» لمحمد حسين هيكل ص٢٤ وما بعدها وكتاب «من نفحات الحرم» لعلي الطنطاوي ص١٣٧ وما بعدها.

وهكذا كانت الآيات الاولى من سورة العلق «١ ـ ٥» اول ما انزل من القرآن، وقد قال ابن سعد في رواية نقلها باسناده[٨٠]: «نزل الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء، يوم الاثنين، لسبع عشر خلت من شهر رمضان، ورسول الله يومئذ ابن اربعين سنة، وجبريل الذي كان ينزل عليه بالوحي».

المبحث الثالث: فتور الوحي:

ورد في اخر الرواية السابقة لابتداء نزول القرآن ان الوحي فتر بعد اللقاء الاول. فكان ذلك مما يقلق النبي صلى الله عليه وسلم وقد صوّر ابن سعد ذلك في هذه الرواية[٨١]: «اخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثني ابراهيم بن محمد بن أبي يحيى الاسلمي، عن داود ابن الحصين، عن ابي غطفان بن طريف، عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل عليه بحراء مكث اياماً لايرى جبريل، فحزن حزناً شديداً. حتى كان يغدو الى ثبير مرة والى حراء مرة يريد ان يلقي نفسه منه، فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك عامداً لبعض تلك الجبال اذ سمع صوتاً من السماء، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم صعقاً للصوت ثم رفع رأسه فاذا جبريل يقول: يامحمد انت رسول الله حقاً وانا جبريل، قال: فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اقر الله عينه وربط جأشه، ثم تتابع الوحي بعد وحيي».

وينقل البخاري الرواية بتفصيل آخر. على هذا النحو[٨٢]: «قال ابن شهاب: واخبرني ابو سلمة بن عبدالرحمن ان جابر بن عبدالله الانصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: بينما انا امشي اذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فاذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين

---

(٨٠) الطبقات الكبرى ١/١٩٤ وانظر ايضاً ١/١٩٠ ـ ١٩١ والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/١١٤٣.

(٨١) الطبقات الكبرى ١/١٩٦ وانظر الساعاتي: الفتح الرباني ٢٠/٢٠٩ والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/١١٥٥ ونقل البخاري هذه الرواية مختصرة في باب تعبير الرؤيا، عن الزهري. انظر: ابن حجر: فتح الباري ١٢/٣٥٢.

(٨٢) صحيح البخاري ١/٦ و٦/٢١٥. وانظر: صحيح مسلم ١/٩٨، والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/١١٥٥.

السماء والارض، فرُعبْتُ منه، فرجعت فقلت زملوني، فدثروه، فانزل الله تعالى: «ياايها المدثر قم فانذِرْ، وربَّك فكبر، وثيابَكَ فطهرْ، والرُّجْزَ فاهجرْ» ثم تتابع الوحي».

ولا تحدد روايات فتور الوحي المدة التي كانت بين نزول اول سورة العلق ونزول اول سورة المدثر، ويبدو انها لم تطل كثيراً، ففي رواية البخاري «وفتر الوحي فترة، حتى حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم»[٨٣] وفي طبقات ابن سعد «لما نزل عليه الوحي بحراء مكث اياماً لا يرى جبريل، فحزن حزناً شديداً»[٨٤]. وفي السيرة النبوية لابن هشام «قال ابن اسحاق: ثم فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة من ذلك، حتى شق عليه فأحزنه»[٨٥].

ونجد في بعض المصادر ان مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين، اعتماداً على رواية عن الشعبي، تقول: «بُعِثَ لأربعين، ووكّل به اسرافيل ثلاث سنين، ثم وُكِّل به جبريل»[٨٦]، ولكن هذه الرواية لا تتحدث عن فترة الوحي اولاً، ثم هي غير موثقة عند العلماء ثانياً، قال ابن سعد، بعد ان اورد الرواية من طريق داود بن ابي هند عن عامر[٨٧]: «فذكرتُ هذا الحديث لمحمد بن عمر «يعني الواقدي استاذه» فقال: ليس يعرف اهل العلم ببلدنا ان اسرافيل قُرِنَ بالنبي صلى الله عليه وسلم وان علماءهم واهل السيرة منهم يقولون: لم يقرن به غير جبريل من حين انزل عليه الوحي الى ان قبض صلى الله عليه وسلم.

وانقطاع الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم تلك المدة، فيه من تطمين نفس النبي واعدادها لتلقي القرآن العظيم وحمل اعباء الرسالة، ما كان في الرؤيا الصادقة وفي الخلوة من تهيئة النبي لذلك التحول في حياته. فقد ذهب في هذه الفترة ما وجده رسول الله صلى الله عليه وسلم من الروع في لقاء غار حراء، وكذلك تشوق،

---

(٨٣) صحيح البخاري ٦/٢١٥.
(٨٤) الطبقات الكبرى ١/١٩٦، وانظر: ابن حجر: فتح الباري ١٢/٣٦٠.
(٨٥) السيرة النبوية: ١/٢٤١.
(٨٦) ابن حجر: فتح الباري ١/٢٧ والعيني: عمدة القاري ١/٦٢.
(٨٧) الطبقات الكبرى ١/١٩١، وانظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/١٢٤٩.

بعد ذهاب الروع عنه الى رؤية الملك مرة اخرى [٨٨]. قال الحافظ ابن حجر [٨٩]: «وفتور الوحي عبارة عن تأخره مدة من الزمان وكان ذلك ليذهب ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وجده من الروع، وليحصل له التشوّف الى العَوْد...».

المبحث الرابع: كيف كان النبي يتلقى القرآن

ان موضوع نزول الملك على النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن، والكيفية التي كان يأتيه بها من أمر الغيب الذي لا يعرف إلا من طريق القرآن أو الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ولايملك الانسان ان يقول فيه شيئاً إلا بدليل منقول. ولذلك سوف نناقش هذا الموضوع على ضوء ما جاء في القرآن وماثبت في الحديث الصحيح.

جاء في القرآن الكريم ان التلقي عن الله مباشرة ليس في مستطاع الانسان ومن ثم فان ايصال المعرفة الالهية الى البشر يمكن ان يتحقق باحدى الطرق الثلاث التي تشير اليها الآية الكريمة من سورة الشورى ٥١ ـ ٥٣:

«وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء. إنه علي حكيم. وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي الى صراط مستقيم. صراط الله الذي له مافي السماوات وما في الارض. ألا الى الله تصير الامور».

ويتضح من هذا النص القرآني بالاضافة الى ما سبق ان ليس من الممكن ان يكلم الله عبده انما يتم تكليم الله للبشر بواحدة من ثلاث طرق:

١ ـ وحياً يلقى في النفس مباشرة كالرؤيا الصادقة او الالهام [٩٠].

---

(٨٨) انظر العيني، عمدة القاري ١ / ٦٠.

(٨٩) فتح الباري ١ / ٢٧.

(٩٠) جاء في مادة «وحي» في لسان العرب لابن منظور: وأصل الوحي في اللغة كلها اعلام في خفاء، ولذلك صار الالهام يسمى وحياً وكذلك الاشارة والايماء يسمى وحياً، والكتابة تسمى وحياً. وانما سمي ما ينزل به الملك على النبي وحياً لان الملك اسره على الخلق وخص به النبي صلى الله عليه وسلم اسبحديث اليه. اما الالهام فقد جاء في مادة «لهم» في لسان العرب:

الالهام: ما يلقى في الروع ـ بضم الراء المشددة ـ وهو ان يلقى الله في النفس امراً يبعث على الفعل او الترك، وهو نوع من الوحي، يخص الله به من يشاء من عباده.

٢ ـ «او من وراء حجاب» كما كلم الله موسى عليه السلام وحين طلب الرؤية لم يجب اليها، ولم يطق تجلي الله على الجبل «وخر موسى صعقاً، فلما افاق قال: سبحانك تُبتُ اليك، وانا اول المؤمنين». «الاعراف ١٤٣».

٣ ـ «او يرسل رسولاً» وهو الملك «فيوحي باذنه ما يشاء». (جبريل)

وقد اشارت الآية السابقة الى ان ما اوحاه الله الى النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو من جنس ما اوحاه الله الى الانبياء السابقين «كذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا»، فالوحي تم بالطريقة المعهودة، ولم يكن امر هذا الوحي بدْعاً. ثم اكدت هذا المعنى آيات اخرى منها قوله تعالى: «انا اوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده...» (النساء ١٦٣).

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم الكيفية التي يلقي بها الملك الوحيَ اليه، وشهد الصحابة حالة النبيّ صلى الله عليه وسلم لحظة التلقي ووصفوها، فمن ذلك ماورواه ابن سعد عن عبادة بن الصامت ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا نزل عليه الوحي كُرِبَ له[٩١]. وربما نزل عليه الوحي، وهو على راحلته، فترغو وتفتل بذيها حتى يظن ان ذراعها تنفصم، فربما بركت وربما قامت موتدة يديها حتى يسرّى عنه، من ثقل الوحي[٩٢].

وكان الصحابة يعرفون حالة النبي صلى الله عليه وسلم ساعة يوحى اليه ربما سمعوا اصواتاً عند وجهه، فقد رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال: «كان اذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي سمع عند وجهه كَدَوِيّ النحل...»[٩٣].

ولم تكن تلك الشدة التي صاحبت نزول القرآن الكريم التحول دون وعي النبي صلى الله عليه وسلم لما يلقي اليه من القرآن، بل انه ليكون اكثر انتباهاً ووعياً في تلك اللحظة ـ حيث كان يتلى على الصحابة ما ينزل عليه من القرآن فور انقطاع الوحي، وقد سأله عبد الله بن عمرو بن العاص عن احساسه بالوحي حيث يقول[٩٤]: «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله هل تُحِسُّ الوحيَ؟

(٩١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/١٩٧.
(٩٢) المصدر نفسه، والفتح الرباني ٢٠/٢١٢.
(٩٣) عبدالرزاق الصنعاني: المصنف ٣/٢٨٣. الفتح الرباني ١٨/٢١٤.
(٩٤) الفتح الرباني ٢٠/٢١١.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، اسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك..».

ولا يَدَعُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مجالاً للشك في شدة يقظته ووعيه في لحظة تلقي القرآن من جبريل، كما في الحديث الذي يرويه البخاري في صحيحه[٩٥] «عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجَرَس، وهو اشده علي فيفصم عني وقد وَعَيْتُ ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول.

قالت عائشة رضي الله عنها ولقد رايته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وان جبينه ليتفصد عرقاً».

ويتبين من هذا الحديث صورتان للوحي، وينبغي ان نلاحظ ان النبي صلى الله عليه وسلم يؤكد في الحالتين جميعاً على مسألة الوعي الكامل لما يلقى اليه حيث يقول: «وقد وعيت ما قال، فأعي ما يقول».

والظاهر من الرواية ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعاني شدة من الوحي في الصورتين، وان كانت واحدة اشد من الاخرى، ويؤكد ذلك قول عائشة رضي الله عنها ففيه دلالة على كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي، لما فيه من مخالفة العادة، فان كثر العرق في اليوم الشديد البرد يُشْعرُ بوجود امر طارىء زائد على الطباع البشرية حتى انه كان اذا جاءه الوحي وهو على ناقته بركت على الارض من ثقل ما يوحى اليه كما مر[٩٦].

ولاشك في ان الحالة التي يكون عليها النبي صلى الله عليه وسلم حين ينزل الوحي عليه ابعد ما تكون من حالة السبات الطبيعي الذي يعتري المرء في وقت حاجته الى النوم فانها كانت تعروه قائماً او قاعداً او سائراً او راكباً وبكرة او عشياً

---

(٩٥) صحيح البخاري ١/٤.
(٩٦) انظر فتح الباري ١/٢١.

وفي اثناء حديثه مع اصحابه او اعدائه. وكانت تعروه فجأة وتنقضي في لحظات يسيرة، لا بالتدريج الذي يعرض للوسنان، فكان اذا نزل عليه الوحي اخذته البُرَحَاءُ[٩٧] حتى يتفصد جبينه عرقاً، وثقل جسمه حتى يكاد يرض فخذه فخذ الجالس الى جانبه، وحتى لو كان راكباً لبركت به راحلته، وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه اصواتاً مختلطة تشبه دوي النحل، لا تسمع منه ولا من غيره عند النوم، ثم لايلبث ان تسرى عنه تلك الشدة فاذا هو يتلو قرآناً جديداً[٩٨].

وكما ان حالة تلقي الوحي تخالف حالة النوم كذلك هي تباين كلياً تلك الاعراض المرضية والنوبات العصبية التي تصفر فيها الوجوه وتبرد الاطراف، وتصطك الاسنان وتتكشف العورات، ويحتجب نور العقل، ويخيم ظلام الجهل، لانها حالة كانت مبعث نمو في قوة البدن، واشراق في اللون، وكانت الى جانب ذلك مبعث نور لا ظلمة، ومصدر علم لا جهالة بل كان يجيء معها من العلم والنور ما تخضع العقول لحكمته تتضاءل الانوار عند طلعته[٩٩].

ان التلقي عن الله، حتى ان كان بواسطة الملك، امر خارج على معهود الناس، انها لحظة عظيمة حقاً لحظة تلقي الذات الانسانية لوحي من الذات العلوية، انه امر عجيب لكنه حدث مرات على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واحس بحدوثه كثيرون رأوا مظاهره رأى العين، وكانت ثمرة ذلك اللقاء وذلك التلقي هذا القرآن العظيم الذي تلاه النبي صلى الله عليه وسلم على الناس وحفظه الصحابة عنه وكتبوه ونقلوه الى الاجيال.

المبحث الخامس: حِفْظُ النبي للقرآن:

ان من الآيات الكثيرة الدالة على ربانية القرآن ان الله عز وجل قد مكن رسوله صلى الله عليه وسلم من حفظ القرآن دون استعانة بكتاب، وهو الامي الذي لم يقرأ

---

(٩٧) البرحاء: في اصل اللغة شدة الحمى، ويراد بها هنا شدة الكرب من ثقل الوحي ،انظر: لسان العرب مادة برح.

(٩٨) محمد عبدالله دراز: النبأ العظيم ص٧٠ ـ ٧١.

(٩٩) المصدر نفسه.

كتاباً، ولم يكتب قط[١٠٠]. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعجل ـ بادىء الامر ـ في حفظ القرآن، فيسابق جبريل وهو يلقي اليه القرآن ساعة الوحي، فيردد الآيات قبل ان ينتهي الملك من الوحي، مخافة ان ينسى منه شيئاً، وان ذلك مما يشق عليه، فجاء القرآن يطمئنه في اول الطريق. وينهاه عن تلك العجلة. قال الله تعالى: «وكذلك انزلناه قرآناً عربياً، وصَرَّفْنا فيه مِنَ الوعيدِ لعلهم يتقون، او يحدثُ لهم ذكراً، فتعالى الله الملكُ الحقُ ولا تعجَلْ بالقرآنِ من قبلِ ان يُقْضَى اليكَ وحيُه وقل ربِّ زدْني علماً» (طه١١٣ ـ ١١٤).

وجاءت آيات اخرى تؤكد ان حفظ القرآن مكفول للنبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى: «لا تحرك به لسانكَ لتعجلَ به. إن علينا جمعَه وقرآنه. فاذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانَه» (القيامة ١٦ ـ ١٩).

وروى البخاري في صحيحه ـ في اكثر من موضع ـ تفسيراً لهذه الآيات، منقولاً عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه جاء فيه: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعالج «اي يعاني» من التنزيل شدة، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه، يخشى ان ينفلت منه، فأنزل الله «لاتحرك به لسانك لتعجل به. ان علينا جمعه وقرآنه». جمعه، ان نجمعه في صدرك» وقرآنه ان تقرأه. فاذا قرأناه فاتبع قرآنه»: فاذا انزلناه فاستمع وانصت. «ثم ان علينا بيانه»: ثم ان علينا ان نبينه بلسانك، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك اذا أتاه جبريل استمع، فاذا انطلق جبريل قراه النبي صلى الله عليه وسلم كما قرأه جبريل[١٠١].

وهذه الآيات تؤكد امراً مهماً، هو تكفل الله المطلق بشأن هذا القرآن، وحياً وحفظاً وبياناً، واسناده اليه سبحانه بكليته، ليس للرسول صلى الله عليه وسلم من أمره الا وعيه وحمله وتبليغه[١٠٢].

---

(١٠٠) ان صفة الامية بالنسبة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ليست من النقائص بل هي من المعجزات فقد شاء الله ان يجعل نبيه امياً ليكون ذلك ابلغ في الدلالة على ان القرآن من الله تعالى، وليقطع كل شك او تقول بلهج به المعاندون، اذا زعموا ان النبي قرأ علوم الاقدمين، ودرس كتب الانبياء السابقين، ثم جاء بهذا القرآن من عند نفسه. وقد بين الله تعالى ذلك في القرآن بقوله الكريم: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك اذن لا رتاب المبطلون» (العنكبوت ٤٨).

(١٠١) صحيح البخاري ١/٦ و٦/٢٠٢ ـ ٢٠٣. وانظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/١٩٨ ـ ١٩٩. ومسلم: الجامع الصحيح ٢/٣٥. وابن حجر: فتح الباري ١/٢٩ و٨/٦٨١ ـ ٦٨٢.

(١٠٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ٢٩/٢٧٧٠.

والى جانب هذا الاستعداد الدائم الذي خُصَّ به النبي صلى الله عليه وسلم لحفظ القرآن فأن جبريل عليه السلام كان يدارس رسول الله ما نزل عليه في كل مرة كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن ابن عباس حيث يقول: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلَرسول الله صلى الله عليه وسلم اجود بالخير من الريح المرسلة...»[١٠٣].

وكانت ثمرة ذلك التمكين لحفظ القرآن، وهذه المدارسة له بين رسول الله وجبريل ـ ان حفظ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم القرآن حفظاً لاحظَ للنسيان فيه. قال مجاهد «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتذكر القرآن في نفسه، مخافة ان ينسى، فقال الله عز وجل: «سنقرئك فلا تنسى» (الاعلى ٦)»[١٠٤]. فقرأ رسول الله القرآن على الصحابة، فكان بعضهم يكتبه وكان آخرون يحفظونه وأدوه الى من جاء بعدهم من اجيال المسلمين، وظل القرآن محفوظاً كما تلقاه الصحابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يومنا هذا.

المبحث السادس: نزول القرآن منجماً:

لم ينزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم كله مرة واحدة، فقد استمر نزول جبريل عليه السلام بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وعشرين سنة[١٠٥] فكان النبي يتلقى من القرآن في المرة الواحدة آية اوآيات او سورة كاملة[١٠٦].

ونزول القرآن مفرقاً على ذلك النحو يسميه العلماء تنجيم القرآن ويسمون الشيء النازل في المرة الواحدة نجماً، لان من معاني النجم في اللغة «الوقت المضروب» وقد قالت العرب: «نجّمت اليه المال. اذا أديته نجوماً». اي المرة بعد

---

(١٠٣) صحيح البخاري ١/٦.
(١٠٤) تفسير مجاهد ص٧٥٢.
(١٠٥) ابن حجر: فتح الباري ٧/٢٢٧.
(١٠٦) انظر: احمد بن حنبل: المسند ١/٢٩٩ و٤٩٨.

الاخرى (١٠٧) قال ابو شامة(١٠٨): «فلما قطع الله ـ سبحانه ـ القرآن. وانزله مفرقاً. قيل لتفاريقه نجوم».

وقد اثار المشركون مسألة نزول القرآن جملة واحدة. كما توضح ذلك سورة الفرقان «آية ٣٢ ـ ٣٣».

- «وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآن جملة واحدة. كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً. ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيراً.

واذا كان هذا هو الامر الثابت، فهل كان للقرآن نزول آخر قبل نزوله منجماً على النبي صلى الله تعالى صلى الله عليه وسلم نجد في هذا الصدد ثلاث آيات يشير اليها العلماء في هذا المجال، وهي كما يعرضها ابو شامة «عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي ت ٦٦٥هـ» في كتابه «المرشد الوجيز الى علوم تتعلق بالكتاب العزيز»:

قال تعالى: «شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن» (البقرة ١٨٥). وقال تعالى: «انا انزلناه في ليلة مباركة» (الدخان ٣). وقال جلت قدرته: «انا انزلناه في ليلة القدر» (القدر ١) فليلة القدر هي الليلة المباركة. وهي في شهر رمضان جمعاً بين هؤلاء الآيات اذلا منافاة بينها، فقد دلت الاحاديث الصحيحة على ان ليلة القدر في شهر رمضان»(١٠٩).

وهذه الآيات تتحدث عن وقت نزول القرآن، ولا تشير الى الكيفية إلا اشارة عامة، كما اشارت آيات اخرى غيرها الى هذا المعنى، ومع ذلك فقد ورد في آثار مروية في تفسير هذه الآيات تفصيلاً اكثر لهذه المسألة، فقد ذكر ان عبدالله بن عباس «ت ٦٨هـ» فسر قوله تعالى: «انا انزلناه في ليلة القدر» بقوله: نزل القرآن كله جملة واحدة في ليلة القدر في رمضان الى السماء الدنيا، فكان الله إذا اراد ان

---

(١٠٧) انظر: ابن منظور: لسان العرب مادة «نجم».

(١٠٨) المرشد الوجيز ص١٨.

(١٠٩) المرشد الوجيز ص٩، وانظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٢٢٩/١. والزركشي: البرهان ٣٢٨/١ والسيوطي: الاتقان ١١٦/١.

يحدث في الارض شيئاً انزله، حتى جمعه، روى ذلك اهل الحديث مثل ابن ابي حاتم، وابن ابي شيبة والحاكم والبيهقي والطبراني وغيرهم[١١٠]، ونص السيوطي على صحة أسانيد تلك الاحاديث[١١١]. وروي الى جانب ذلك تفسير آخر لقوله تعالى:«انا انزلناه في ليلة القدر». فيذكر ان عامر بن شراحيل الشعبي «ت ١٠٤ على خلاف» قال:(نزل أول القرآن في ليلة القدر[١١٢]).

وعلى هذا يتحصل من ذلك ان القرآن انزل جملة الى السماء الدنيا وهو قول ابن عباس او انه ابتدأ انزال القرآن في تلك الليلة وهو قول الشعبي.

ولاشك في ان نزول القرآن جملة الى السماء الدنيا هو من أمر الغيب الذي تتوقف معرفته على ورود نص في القرآن او حديث يبينه، ولكن قول الصحابي في الامور التي ليست موضع اجتهاد، اذا ثبت، حكمه حكم المرفوع، وهو ما ينطبق على رواية ابن عباس هنا، فاذا ثبت ذلك وجب التسليم بما جاء في الرواية المنسوبة الى ابن عباس، اذ من المرجح ان يكون ابن عباس فهم ذلك التفسير من النبي صلى الله عليه وسلم.

على ان مما ينبغي الالتفات اليه في موضوع نزول القرآن هو ان هذا الاختلاف لا يؤثر في شيء على نص القرآن الكريم. فسواء كان الثابت هو ما نقل عن ابن عباس أم ما روى عن عامر الشعبي، فالقرآن واحد في كلا القولين، وهما يؤولان الى نتيجة واحدة وهي ان القرآن تلقاه النبي صلى الله عليه وسلم مفرقاً، وظل ينزل عليه مدة تقرب من ثلاث وعشرين سنة في الراي الراجح على اساس انه عاش في مكة ثلاثة عشر عاماً بعد النبوة، ثم عاش عشر سنين في المدينة بعد الهجرة كما روى ذلك البخاري عن ابن عباس[١١٣].

---

(١١٠) انظر الزركشي: البرهان ١/٢٢٨ ـ ٢٢٩. والسيوطي: الاتقان ١/١٦٦. والطبري: جامع البيان ٣٠/٢٥٨.

(١١١) الاتقان ١/١١٧.

(١١٢) الطبري: جامع البيان ٣٠/٢٥٨. وابو شامة: المرشد الوجيز ص٢٠.

(١١٣) فتح الباري ٧/٢٢٧.

المبحث السابع: حكمة التنجيم:

استغرق نزول القرآن الكريم ثلاث وعشرين عاماً. فهو لا يكون ظاهرة مؤقتة او خاطفة ولقد نزلت الآيات منجمة، بين كل وحي وما يليه مدة انقطاع تتفاوت طولاً وقصراً[١١٤].

ولكن الم يكن من الممكن تنزيل القرآن كله جملة واحدة؟ وهل هناك حكمة او هدف معين وراء هذا التنجيم؟

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يملك من امر الوحي شيئاً غير التلقي الواعي ساعة الايحاء ثم الحفظ والتبليغ ودعوة الناس. والله سبحانه هو الذي اختار هذا الطريق لتنزيل القرآن، لحكمة كشف لنا عنها بالقرآن، قال الله تعالى: «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة. كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً. ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً» (الفرقان ٣٢ ـ ٣٣). وقال سبحانه: «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مُكث، ونزلناه تنزيلا» (الاسراء ١٠٦).

وقد أدرك تلك الحكمة الصحابة رضوان الله عليهم ونحس بها نحن اليوم. «فتلك في الواقع هي الطريقة التربوية الوحيدة الممكنة في حقبة تتسم بميلاد دين جديد وبزوغ حضارة.. فالحركة التاريخية والاجتماعية والروحية التي نهض بأعبائها الاسلام لا سر لها إلا في هذا التنجيم»[١١٥].

فقد جاء هذا القرآن ليربي امة، ويقيم لها نظاماً، وجاء ليكون منهج تربية ومنهاج حياة، لا ليكون كتاب ثقافة يقرأ لمجرد الاستمتاع الذهني أو لمجرد المعرفة، ومن ثم جاء هذا القرآن مفرقاً وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة، وهي في طريق نشأتها ونموها، ووفق استعدادها الذي ينمو يوماً بعد يوم في ظل ذلك المنهج التربوي الالهي الدقيق. من اجل هذا كله نزل القرآن مفصلاً، يبين اول ما يبين من منهجه لقلب الرسول صلى الله عليه وسلم ويثبته على طريقه[١١٦]، ويتابع

---

(١١٤) انظر : مالك بن نبي: الظاهرة القرانية ص٢١٩.

(١١٥) المصدر نفسه ص٢٢١ ـ ٢٢٢.

(١١٦) ذكر ابو شامة «المرشد الوجيز ٢٨» ان قوله تعالى : «لنثبت به فؤادك» يتحمل معنين. الاول: تقوية قلب النبي وتثبيته. والثاني: تيسير حفظ القران عليه. لانه كان امياً. «وانظر الزركشي: البرهان ٢/٣٣. والسيوطي: الاتقان ١/١٢١» ولعل في ما ذكره «ابو شامة من تيسير الحفظ نظراً لاننا عرفنا من قبل ان الله تعالى قد تكفل لرسوله الله بحفظ القرآن، فكان لا يعجز عن حفظ السورة الطويلة اذا نزلت عليه مرة واحدة.

نزوله على مراحل الطريق جزءاً بعد جزء «كذلك لنثبت به فؤادك، ورتلناه ترتيلا». والترتيل: التفريق. ولقد حقق القرآن بمنهجه ذلك خوارق في تكييف نفوس الجماعة المؤمنة الاولى[١١٧].

وقد ادرك الصحابة تلك الحكمة التربوية من نزول القرآن الكريم مفرقاً، وهم الذين عاشوا تجربة تلقي القرآن على ذلك النحو، فلمسوا ثمار ذلك المنهج عملياً في حياتهم: قالت السيدة عائشة، ام المؤمنين رضي الله عنها كما جاء في صحيح البخاري: «... انما نزل اول مانزل منه «أي القرآن» سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل اول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً. ولو نزل لاتزنوا لقالوا لاندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم واني لجارية العب: «بل الساعةُ موعدُهم، والساعةُ ادهى وأمر» «القمر ٤٦»، ومانزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده...»[١١٨].

قال ابن حجر[١١٩]: «اشارت الى الحكمة الالهية في ترتيب التنزيل، وان اول مانزل من القرآن الدعاء الى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الاحكام ولهذا قالت: «ولو نزل اول شيء لاتشربوا الخمر لقالوا لا ندعها»، وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف.....».

فلم يكن نزول القرآن الكريم مفرقاً مصادفة اذن، ولم تكن تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن على الناس على مكث[١٢٠] دون حكمة. فقد ظل القرآن ينزل في مكة ثلاث عشرة سنة وهو يعالج قضية العقيدة، حتى اذا استوفت هذه القضية ماتستحقه من البيان واستقرت في قلوب الجماعة المؤمنة استقراراً مكيناً ثابتاً،

---

(١١٧) انظر: سيد قطب: في ظلال القرآن ١٩/٢٥٦٣ و١٥/٢٢٥٣.
(١١٨) ابن حجر: فتح الباري ٩/٣٩. ورواه ايضاً عبدالرزاق: المصنف ٣/٣٥٢.
(١١٩) فتح الباري ٩/٤. وانظر: العيني: عمدة القاري ٢٠/٢٢.
(١٢٠) المكث: الاناة واللبث والانتظار «انظر ابن منظور: لسان العرب مادة مكث».

نزلت الآيات تفصل مايتعلق بنظام الاسلام في الحياة، فكانت النفوس تتلقى تنظيمات الاسلام بالرضا والقبول. فأبطلت الخمر وأبطل الربا وأبطل الميسر، وأبطلت العادات الجاهلية كلها، ابطلت بآيات من القرآن، أو كلمات من رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضل ذلك المنهج التربوي الرباني العظيم[١٢١].

المبحث الثامن: اسباب النزول:

١ ـ معنى (اسباب النزول):

لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يملك اختيار الوقت الذي ينزل فيه القرآن عليه، فذلك أمر مرتبط بمشيئة الله تعالى، وما على الرسول إلا البلاغ المبين، فكان القرآن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليل او النهار، في السفر او في الحضر قائماً او قاعداً، ماشياً او راكباً، دون ان يكون له في ذلك اي اختيار.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسألُ من المسلمين ومن غيرهم، فربما اجاب من فوره، وربما انتظر نزول القرآن مبيناً الجواب، أو كاشفاً عن الحكم، وتأمل هذه الآيات الكريمة.

«يسألونك عَن الاهلةِ، قُل: هي مواقيتُ للناسِ والحج» (البقرة ١٨٩).

«يسألونك ماذا ينفقون؟ قل: ما انفقتم من خير فللوالدين...» (البقرة ٢١٥).

«يسألونك عن الساعة أيان مُرساها؟ قُل: انما علمُها عند ربي» (الاعراف ١٨٧).

«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي» (الاسراء ٨٥).

اذا تأملت هذه الآيات احسست ان نزولها ارتبط بسؤال، وربما نزلت الآية عقب حادثة أو مشكلة وقعت في المجتمع الاسلامي، وقت التنزيل.

وقد عبر السلف من الصحابة والتابعين، ومن جاء بعدهم من العلماء والدارسين، عن ذلك السؤال وتلك الواقعة أو المشكلة التي تنزل عقبها الآية أو

---

(١٢١) ذكر بعض علماء السلف ان النسخ في القرآن لا يتأتى ولا تظهر ثمرته التربوية الا في نزول القرآن مفرقاً، لانه لو نزل جملة واحدة لم يجز ان يكون فيه ناسخ ولا منسوخ. «انظر: مكي: الايضاح ص٥١ ـ ٥٢، وابو شامة: المرشد الوجيز ص٢٩».

الآيات بعبارة «سبب النزول» فيقولون «نزلت هذه الآية بسبب كذا». وهذه الاسباب في الواقع «ماهي إلا مناسبات لا أسباب حقيقة، وان سميت اسباباً عن طريق التسامح والتجوز»[١٢٢].

ومن هنا قسم العلماء آيات القرآن بالنسبة الى ارتباط نزولها بسؤال او حادثة الى قسمين[١٢٣]:

قسم نزل ابتداء

وقسم نزل عقب حادثة أو سؤال.

ويلاحظ هنا ان القسم الاول، الذي نزل ابتداء، تتحدث اكثر آياته عن أمور العقيدة، ووصف مشاهد القيامة، ووصف الجنة ونعيمها والنار وأهوالها. وكذلك تتحدث عن خبر الامم الغابرة، وماحل بأهلها، أما القسم الثاني، وهو ما نزل مرتبطاً باسباب ووقائع، فمعظم آياته مما يتعلق بالتشريع والاحكام والاخلاق[١٢٤].

وفي ارتباط نزول بعض الآيات بمناسبة معينة، وهو ما نسميه باسباب النزول حكمة تشريعية وتربوية عظيمة، تجعل من الحكم الذي تتضمنه الآية تجربة واقعية، وتطبيقاً عملياً في المجتمع، يتم تحت نظر النبي صلى الله عليه وسلم وتوجيهه، ويحس بحكمة التشريع الذي تتضمنه الآية كل من كان شاهداً وقت نزولها، وكل من وقف على تلك المناسبة وعرف قصتها فنزول الحكم وقت الحاجة اليه يكون ابعد اثراً في نفوس المخاطبين، ويكون اكثر استجابة له[١٢٥].

٢ ـ الطريق الى معرفة اسباب النزول:

ولمعرفة سبب نزول الآية او مناسبتها طريق واحد، وهو النقل الصحيح عن الصحابة الذين عاصروا تنزيل القرآن، وشاهدوا الاحداث التي وقعت حينذاك ووعوها، يقول الواحدي[١٢٦]: «ولا يحل القول في اسباب نزول الكتاب إلا بالرواية

---

(١٢٢) محمد الفاضل بن عاشور: التفسير ورجاله ص٢٠.

(١٢٣) السيوطي: الاتقان ١/٨٢. وطاش كبرى زادة: مفتاح السعادة ٢/٣٨٥.

(١٢٤) البوطي: من روائع القرآن ص٣٣.

(١٢٥) المصدر نفسه ٣٤. ومناع القطان: مباحث في علوم القرآن ص٩٥.

(١٢٦) اسباب نزول القرآن ص٥.

والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الاسباب، وبحثوا في عملها، وجدوا في الطلاب».

وكان الصحابة يتحدثون عن أسباب النزول وينقلونها الى التابعين على نحو ماروى البخاري عن نافع مولى عبدالله بن عمر انه قال: «كان ابن عمر رضي الله عنهما اذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه، فاخذت عليه يوماً، فقرأ سورة البقرة حتى انتهى الى مكان قال: تدري فيم انزلت؟ قلت: لا. قال: أنزلت في كذا وكذا، ثم مضى»[١٢٧].

والروايات المنقولة في بيان سبب النزول يصرح في بعضها بأن الاية نزلت بسبب كذا، ويأتي بعضها بصيغة «ان هذه الآية في كذا»، قال ابن تيمية[١٢٨]:

«وقولهم: نزلت هذه الآية في كذا، يراد به تارة انه سبب النزول، ويراد به تارة ان هذا داخل الآية، وان لم يكن السبب كما تقول: عني هذه الآية كذا».

من ذلك ما رواه البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه انه قال[١٢٩]: «بينما انا مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرث، وهو متكىء على عسيب اذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فسألوه، فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت انه يوحى اليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: «ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا». فهذا بيان صريح لسبب النزول.

وقول مجاهد في الآيات في اول البقرة[١٣٠]: «أربع آيات من أول هذه السورة نزلت في المؤمنين، وآيتان بعدها نزلت في الكافرين، وثلاث عشرة بعدها نزلت في المنافقين» ليس بيانا لسبب النزول، وانما هو توضيح للمعنى، يدل على ذلك قول سفيان الثوري[١٣١]: «نزلت أربع آيات في أول البقرة في نعت المؤمنين، وآيتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة آية في نعت المنافقين».

---

(١٢٧) ابن حجر: فتح الباري ٨/١٨٩.
(١٢٨) مقدمة في اصول التفسير ص٤٨. ونقله السيوطي في الاتقان ١/٨٩.
(١٢٩) ابن حجر: فتح الباري ٨/٤٠١.
(١٣٠) الواحدي: اسباب نزول القران ص١٩.
(١٣١) سفيان الثوري: تفسير العظيم ص١.

ومثل ذلك قول الواحدي في سورة الفيل: «نزلت في قصة اصحاب الفيل، وقصدهم تخريب الكعبة، ومافعل الله تعالى بهم: من اهلاكهم وصرفهم عن البيت، وهي معروفة»[١٣٢]. ولعل السيوطي وهو حين نسب الى الواحدي القول بأن سبب نزول السورة قصة قدوم الحبشة في قوله[١٣٣]: «والذي يتحرر في سبب النزول انه مانزلت الآية ايام وقوعه، ليخرج ماذكره الواحدي في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة، فان ذلك ليس من اسباب النزول في شيء، بل هو من باب الاخبار عن الوقائع الماضية»، لكن الواحدي لم يقل ان ذلك سبب لنزول السوره، وانما هو مثل قول مجاهد: نزلت في كذا، اشارة الى ما تتضمنه من حكم او معنى وان كان المتبادر الى الذهن ان كل مايورده الواحدي في كتابه هو من اسباب النزول.

ونقل المحدثون في كتبهم والمفسرون في تفاسيرهم الروايات والاخبار التي تبين سبب نزول الايات، ولكن لم تصنف في كتاب مستقل قبل الامام علي بن عبدالله المديني (ت ٢٣٤هـ)، شيخ الامام محمد بن اسماعيل البخاري، فهو اول من صنف في هذا العلم[١٣٤].

وقال السيوطي[١٣٥]: «أفرد» بالتصنيف جماعة أقدمهم علي بن المديني شيخ البخاري، ومن اشهرهما كتاب الواحدي، على مافيه من اعواز، وقد اختصره الجعبري فحذف اسانيده، ولم يزد عليه شيئاً، وألف فيه شيخ الاسلام ابو الفضل بن حجر كتاباً مات عنه مسودة، فلم نقف عليه كاملاً، وقد ألفت فيه كتاباً حافلاً موجزاً محرراً، ولم يؤلف مثله في هذا النوع، سميته: لباب النقول في اسباب النزول».

والمعروف من هذه الكتب ـ مطبوعاً ـ اليوم كتاب الواحدي (ت ٤٦٨هـ) وكتاب السيوطي (ت ٩١١هـ).

---

(١٣٢) اسباب نزول القران ص٥٠٠.

(١٣٣) الاتقان ١/ ٩٠. ولباب النقول في اسباب النزول «له» ص١٤.

(١٣٤) حاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ٧٦.

(١٣٥) الاتقان: ١/ ٨٢.

٣ ـ اهمية معرفة أسباب النزول:

الوقوف على سبب نزول الآية ومناسبتها له فائدة كبيرة في تيسير فهم معناها، ومعرفة مافيها من تشريع، وقد اكد العلماء اهمية وقوف مفسر القرآن على مناسبة النزول، «لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها، كما يقول الواحدي[١٣٦].

وقال ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ): بيان سبب النزول طريق قوى في فهم معاني القرآن[١٣٧]. وقال ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فان العلم بالسَّبَب يورث العلم بالمسَبَّب[١٣٨].

وقد تبادر لبعض من تلا قول الله تعالى: «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناحٌ فيما طَعِموا، اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا، واللّهُ يحبُّ المحسنين» (المائدة ٩٣). تبادر الى ذهنه ان من توفر له ماذكرته الآية من صفات الايمان والعمل الصالح والتقوى والاحسان جاز له ان يأكل مايشاء، ويشرب مايشاء، حتى ولو كان ذلك محرماً بنص الكتاب[١٣٩].

لكن الوقوف على مناسبة نزول هذه الآية يقفنا على حقيقة معناها، ومن يشملهم حكمها، فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما انه لما نزل تحريم الخمر قال بعض الصحابة: كيف لاصحابنا الذين ماتوا وكانوا يشربونها؟ قبل نزول التحريم طبعاً، فنزلت هذه الآية: «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا...»[١٤٠]. وقد جاءت هذه الآية في المصحف بعد أيات تحريم الخمر مباشرة، وفي سورة المائدة «أية ٩٠ ـ ٩٢».

---

(١٣٦) الواحدي: اسباب نزول القرآن ص٥.

(١٣٧) السيوطي: الاتقان ١/٨٣.

(١٣٨) ابن تيمية: مقدمة في اصول التفسير ص٤٧.

(١٣٩) الزركشي: البرهان ١/٢٨. والسيوطي: الاتقان ١/٨٣.

(١٤٠) ابن حجر: فتح الباري ٨/٢٧٨. والواحدي: اسباب نزول القرآن ص٢٠٣.

وقد ذهب جمهور العلماء الى ان حكم الآية التي تنزل بسبب سؤال من شخص معين، او عقب حادثة تتعلق بشخص معين، يشمل الحالات المشابهة التي تشبه حالة من نزلت الآية بسببه، وهو مايعبرون عنه بعبارة «الاخذ بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب»(١٤١).

قال ابن تيمية(١٤٢): «لم يقل احد من علماء المسلمين ان عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وانما غاية مايقال: انها تختص بنوع ذلك الشخص فتعم مايشبهه.... والآية التي لها سبب معين ان كانت امراً او نهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وان كان خبراً بمدح او ذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته».

وقال الطبري، بعد ان تحدث عن سبب نزول قوله تعالى: «هو الذي انزل عليه الكتاب منه آياتٌ محكماتٌ هُن امُّ الكتاب وأخرُ متشابهات...» (آل عمران٧) قال(١٤٣): «وهذه الآية وان كانت نزلت فيمن ذكرناه انها نزلت فيه من اهل الشرك، فانه مَعنِيٌّ بها كل مبتدع في دين الله بدعة، فمال قلبه اليها، تأويلاً، منه لبعض متشابه اي القرآن».

وورد هذا المعنى في حديث النبي صلى الله عليه وسلم فقد روى البخاري عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً اقترف اثماً، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فانزلت عليه «واقم الصلاةَ طرفي النهار وزُلفاً منَ الليل، إنَّ الحسناتِ يُذهبنَ السيئاتِ ذلك ذكرى للذاكرين» (هود ١١٤) قال الرجل: الي هذه؟ قال: لمن عَمِلَ بها مِنْ أمتي(١٤٤).

(١٤١) الزركشي: البرهان ١/٣٢، والسيوطي: الاتقان ١/٨٥.
(١٤٢) مقدمة في اصول التفسير ص٤٧.
(١٤٣) جامع البيان ٣/١٨١.
(١٤٤) ابن حجر: فتح الباري ٨/٣٥٥

الفصل الثاني
كتابة القرآن الكريم وجمعه

المبحث الاول: كتابة القرآن في حياة رسول الله:

ان الكتابة اهم وسيلة لحفظ الافكار ونقل المعرفة من جيل الى جيل، لكن الكتابة كانت قليلة في بلاد العرب، حين ظهر الاسلام، فكان الكتاب في مدن الجزيرة العربية آنذاك أفراداً معدودين، قال البلاذري وهو يتحدث عن الكتابة في مكة: «دخل الاسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب» وقال عن الكتابة في يثرب: ان الاسلام جاء وفيهم عدة يكتبون وذكر منهم احد عشر كاتباً[١٤٥].

وكانت وسائل الكتابة في بلاد العرب بسيطة آنذاك، فالاقلام اعواد القصب، والصحائف اكتاف الابل وعسب النخيل والحجارة الرقيقة، وقطع الاديم، ولعل الرُقّ والوَرَق كانا نادري الوجود في بلاد الجزيرة[١٤٦].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً، لم يمارس القراءة والكتابة، ولكنه اهتم بعد نزول القرآن عليه بتدوينه، ولم تمنع قلة الكتاب ولا وسائل الكتابة الصعبة من تحقيق تلك الغاية، لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتجه الى تعلم الكتابة، بل استعان بجماعة من اصحابه ممن يتقن الكتابة، لتدوين ماينزل عليه من القرآن، وما يحتاج اليه من كتابات، فاتخذ عدداً من الكتاب، اختص جماعة منهم بكتابة القرآن، كانوا يُسَمَّوْنَ بكتاب الوحي، وقد ذكر بعض المؤرخين ان عدد من كتب للنبي من الصحابة بلغ ثلاثة واربعين رجلاً[١٤٧]. وكان اشهر من كتب الوحي من الصحابة عثمان بن عفان، وعلي بن ابي طالب، وابي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن ابي سفيان، رضي الله عنهم[١٤٨].

---

(١٤٥) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٧٧ و٤٧٩.

(١٤٦) انظر: الاتقان ١/١٦٨.

(١٤٧) انظر. نصر الهوريني: المطالع النصرية ص١٣.

(١٤٨) انظر اسماء كتاب النبي عند: الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٢. وابن عبد البر: الاستيعاب ١/٦٨، وابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/١٦١، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد ١/٢٩. وابن حجر: فتح الباري ٩/٢٢.

وكان زيد بن ثابت ألزم الصحابة لكتابة الوحي، في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم[١٤٩] لاسيما انه كان جار رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة فقد روى ابن ابي داود عن خارجة بن زيد انه قال[١٥٠]: «دخل نفر على زيد بن ثابت، فقالوا: حدثنا بعض حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ماذا احدثكم؟ كنت جار رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اذا نزل الوحي أرسل اليّ فكتبت الوحي...» وكان رسول الله كثيراً ما يقول «ادعُ لي زيداً وليجيء باللوح والدواة»[١٥١] فيكتب له الوحي.

ولا ريب في ان كتابة القرآن في المدينة كانت أيسر منها في مكة. فالمسلمون في مكة - قبل الهجرة - كانوا قلة، وكانوا يعانون من عنت المشركين واذاهم، ومع ذلك جاءت روايات تاريخية تؤكد ان القرآن كان يكتب في مكة قبل الهجرة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح اول من كتب له قريش[١٥٢].

وورد في قصة اسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان اوائل سورة «طه» مكتوبة في رقعة، في بيت فاطمة بنت الخطاب، اخت عمر[١٥٣]. ولم تكن هذه الصحيفة الا واحدة من صحف كثيرة كانت متداولة بين المسلمين في مكة، يقرؤون فيها القرآن[١٥٤].

وكتابة القرآن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مسألة متروكة للصدفة، وانما كانت مقصودة وخاضعة للتوجيه النبوي الحكيم، فلولا حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على كتابة القرآن لما كان هناك ذلك الاهتمام الكبير

---

(١٤٩) ابن عبدالبر: الاستيعاب ١/٦٨.
(١٥٠) كتاب المصاحف ص٣.
(١٥١) البخاري: الجامع الصحيح ٦/٢٢٧ والذهبي: سير الاعلام النبلاء ٢/٣٠٨.
(١٥٢) ابن عبدالبر: الاستيعاب ١/٦٨ وانظر: ابن قتيبة: المعارف ص١٣٠.
(١٥٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/٢٦٧. وابن هشام: السيرة النبوية ١/٣٤٤.
(١٥٤) محمد حسين هيكل: الصديق ابو بكر ص٣٠٩.

بكتابته، خاصة ان وسائل الكتابة كانت صعبة، لا تساعد على كتابة النصوص الطويلة بسهولة. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الشيء من القرآن دعا بعض من كان يكتب له، فيقول ضعوا هذه الآيات في السورة التي يعنيها لهم[١٥٥].

وكانت كتابة القرآن تخضع للمراجعة والتدقيق، حتى لا يتطرق احتمال الخطأ او النقصان الى كتاب الله تعالى. فقد روى عن زيد بن ثابت انه قال: «كنت اكتب الوحي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يملي علي، فاذا فرغت قال: اقرأه فأقرأه، فان كان فيه سَقْطٌ أقامَهُ، ثم اخرج به الى الناس»[١٥٦]. وربما اجتمع بعض الصحابة حول رسول الله صلى الله عليه وسلم يدققون ويرتبون ما نزل من القرآن، كما روي عن زيد انه قال: «كنا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع...»[١٥٧]. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى في اول عهد الاسلام عن كتابة شيء من كلامه غير القرآن، خشية اختلاطه بالقرآن، فقال «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن فمن كتب عني غير القرآن فليمحه»[١٥٨].

ويبدو ان عدداً غير قليل من الصحابة كان يكتب القرآن، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لهم[١٥٩]: «لا تكتبوا القرآن الا في شيء طاهر»، ومن ثم كثرت الصحف التي كتب عليها القرآن في ايدي الصحابة حتى ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى ان يُسافر بالقرآن او المصاحف الى ارض العدو خشية ان ينالوها[١٦٠].

وقد ظل القرآن يكتب في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم على القطع المتفرقة، دون ان يجمع ويكتب على الصورة التي نجدها للمصحف اليوم، روى

---

(١٥٥) انظر: احمد بن حنبل: المسند ١/ ٣٩٩ و٤٩٨، وابو شامة: المرشد الوجيز ص٣٣، والزركشي: البرهان ١/ ٢٣٤.

(١٥٦) الصولي: ادب الكتاب ص١٦٥ والسمعاني: ادب الاملاء والاستملاء ص٧٧.

(١٥٧) الحاكم: المستدرك ٢/ ٢٢٩، وابو شامة: المرشد الوجيز ص٤٤. ومعنى تأليف القرآن هنا: ترتيب الآيات المتفرقة في سورها، من القطع التي كتب عليها. والرقاع جمع رقعة، وهي تطلق على ما كان يكتب عليه القرآن انذاك.

(١٥٨) ابن ابي داود: المصاحف ص٤. والخطيب البغدادي: تقييد العلم ص٢٩.

(١٥٩) ابو عبيد: فضائل القرآن ورقة ٩و.

(١٦٠) المصدر نفسه ورقة ٩و. وورقة ٢٢ ظ. وابن قتيبة: عيون الاخبار ٢/ ١٣١. ابن ابي داود: المصاحف ص١١٧٩ وما بعدها.

الطبري في تفسيره ان محمد بن شهاب الزهري قال «قُبِضَ النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن القرآن جمع في شيء، وانما كان في الكرانيف والعُسُب»[١٦١]، وقد نص ابن حجر والقسطلاني على ان القرآن كان كله قد كتب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم في الصحف والالواح والعسب، لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور[١٦٢]. وانما لم يجمع القرآن في مصحف منظم في حياة رسول الله عليه وسلم لان القرآن كان ينزل مفرقاً، كما عرفنا، ولان السورة ربما نزل بعضها، ثم تأخر نزول تتمتها، فكان القرآن يكتب على القطع حتى اذا توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألهم الله الخلفاء الراشدين جمع القرآن على نسق ما كان يقرأ في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من القطع التي كتبت بين يديه[١٦٣].

المبحث الثاني: جمع القرآن في خلافة الصديق:

تولى ابو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الاعلى، في شهر ربيع الاول من السنة الحادية عشرة للهجرة[١٦٤]. وكان اول ما واجهه ـ في خلافته ـ ارتداد قبائل من العرب عن اداء بعض حقوق الاسلام.

فوقف الصديق من هؤلاء موقفاً حازماً، وقال كلمته المشهورة[١٦٥]:«والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم عليه». وانضم بعض المرتدين الى مدعي النبوات الكاذبة فجهز الصديق الجيوش التي كان في طليعتها كبار الصحابة، لقتال هؤلاء الخارجين على الدين ولم تمض الا فترة يسيرة حتى عادت الجزيرة العربية كلها الى الأسلام.

وقد استشهد في تلك الحروب عدد من الصحابة رضوان الله عليهم كان من بينهم عدد من حفاظ القرآن. وكانت معركة اليمامة، التي اذل الله فيها مسيلمة

---

(١٦١) جامع البيان ١/ ٢٨. وانظر: السيوطي الاتقان ١/ ١٦٤. والكراميف والعسب هي اصول سعف النخيل، اشارة الى القطع التي كتب عليها القرآن، في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

(١٦٢) ابن حجر: فتح الباري ٩/ ١٢. والقسطلاني: لطائف الاشارات ١/ ٥١.

(١٦٣) انظر ابن حجر : فتح الباري ٩/ ١٢. والسيوطي الاتقان ١/ ١٦٤.

(١٦٤) تاريخ خليفة بن خياط ١/ ٦٨.

(١٦٥) المصدر نفسه ١/ ٧٩.

الكذاب وجمعه، من اعظم الغزوات في حروب الردة، وابعدها اثراً، وقد استشهد فيها عدد من كبار الصحابة من المهاجرين والانصار وغيرهم كان من بينهم قريب من خمسين من حملة القرآن[١٦٦].

وكانت هذه الاحداث، والعدد الكبير الذي قتل فيها من الصحابة من حملة القرآن خاصة، من أهم العوامل التي نبهت عمر بن الخطاب وبعض الصحابة الى ضرورة جمع القرآن في صحائف موحدة، بدل تلك القطع المتفرقة خشية أن يقتل عدد آخر من حفاظ القرآن من الصحابة، او ان تذهب بعض تلك القطع التي كتبت عليها، فيتعرض القرآن الى ضياع شيء منه، او نسيانه، وكانت حروب اليمامة ونتائجها السبب المباشر الذي وضع تلك الفكرة موضع التنفيذ.

وقد نقلت كتب الحديث والتاريخ تفاصيل عملية جمع القرآن في الصحف من القطع التي كتبت في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى البخاري وغيره، عن محمد بن شهاب الزهري، عن عبيد بن السباق، ان زيد بن ثابت قال[١٦٧]: «ارسل اليّ أبو بكر الصديق مَقْتَلَ اهل اليمامة، فاذ عمر بن الخطاب عنده، قال ابو بكر رضي الله عنه ان عمر أتاني، فقال: ان القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، واني اخشى ان يستحر القتل بقراء القرآن في المواطن كلها، فيذهب كثير من القرآن، الا ان تجمعوه واني ارى ان تأمر بجمع القرآن. قال ابو بكر: قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر: هو ـ والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح صدري لذلك، ورأيت الذي رأى عمر.

«قال زيد: قال ابو بكر: انك رجل شاب، عاقل، لاتنهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه، قال زيد: فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل علي مما امرني به من جمع القرآن. قلت: كيف

---

(١٦٦) المصدر نفسه ١/ ٩٠.

(١٦٧) الرواية في صحيح البخاري في كتاب التفسير ٦/ ٨٩ ـ ٩٠ وكتاب فضائل القرآن ٦/ ٢٢٥ وكتاب الاحكام ٩/ ٩٢ ـ ٩٣ وانظر: ابو عبيد: فضائل القرآن ورقة ٣٥و٠ وابن ابي داود: كتاب المصاحف ص٦ ـ ٨. والبناء الساعاتي: الفتح الرباني ١٨/ ٣١. وذكر ان الترمذي والنسائي نقلا الرواية ايضاً. وانظر: كذلك: ابن النديم: الفهرست ص٢٤. والزركشي: البرهان ١/ ٢٣٢. والسيوطي: الاتقان ١/ ١٦٥.

تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال ابو بكر: هو والله خير. فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر ابي بكر وعمر، رضي الله عنهما.

«فقمت فتتبعت القرآن، أجمعه من الرقاع والاكتاف والعسب، وصدور الرجال[١٦٨]، حتى وجدت اخر سورة التوبة «لقد جاءكم رسولٌ من انفسِكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ» حتى خاتمة براءة، مع خزيمة بن ثابت ـ او ابي خزيمة ـ الانصاري لم أجدها مع احد غيره[١٦٩]، فألحقتها في سورتها.

وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند ابي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر، رضي الله عنهم.

وتتضح من هذه الرواية جملة امور تتعلق بجمع القرآن، منها السبب الذي دفع الصحابة الى القيام بجمع القرآن، وهو الخوف من ضياع بعض القرآن بذهاب حفظته من الصحابة، حيث قال عمر بن الخطاب: «واني أخشى أن يستحر القتل بقراء القرآن في المواطن كلها، فيذهب كثير من القرآن».

ويفهم من هذه الرواية ايضاً ان القرآن لم يجمع في صحف منظمة قبل هذا الجمع، «كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله[١٧٠]، لكن هذا لاينفي ان القرآن كان مكتوباً بأكمله على القطع المتفرقة، كما تشير الى ذلك الروايات الكثيرة على نحو ما جاء في قول الزهري «قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن القرآن جمع

---

(١٦٨) ذكر ابن حجر «فتح الباري ٩/ ١٥» ان الواو في «وصدور الرجال) بمعنى «مع» اي: اكتبه من المكتوب الموافق للمحفوظ في الصدور.

(١٦٩) اي لم يجدها مع غيره مكتوبة، لان الصحابة الكرام كانوا يحفظون القرآن كلاً او جزءاً.

(١٧٠) لا يعارض هذا ما ذكر من ان سالم بن معقل مولى ابي حذيفة كان اول من جمع القرآن، كما نقل السيوطي عن ابن اشته «الاتقان ١/ ١٦٦» لان سالماً رضي الله عنه استشهد يوم اليمامة «انظر: ابن قتيبة: المعارف ص١١٩ والذهبي: سير اعلام النبلاء ١/ ١٢٢» ولا ماورد عن اشعث عن محمد بن سيرين من ان علي بن ابي طالب رضي الله عنه اقسم بعد وفاة النبي الا يرتدي برداء الا لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف. قال ابن ابي داود «كتاب المصاحف ص١٠»: لم يذكر المصحف الا اشعث، وهو لين الحديث، انما رووا حتى اجمع القرآن». وقال ابن حجر عن حديث اشعث «فتح الباري ٩/ ١٣»: اسناده ضعيف لانقطاعه.

في شيء وانما كان في الكرانيف والعسب». فالذي قام به زيد في خلافة الصديق هو جمع تلك القطع ونسخها في صحف منظمة بعد أن دعت الضرورة الى ذلك، «فلم يأمر ابو بكر الا بكتابة ما كان مكتوباً[١٧١].

وقد جاء في بعض الروايات ان الصحف التي جمع فيها القرآن كانت من القرطاس ففي موطأ ابن وهب عن مالك عن ابن شهاب عن سالم بن عبدالله بن عمر، قال[١٧٢]: جمع ابو بكر القرآن في قراطيس». والقرطاس: هو الورق الذي يعمل من البردي في مصر قديماً، والقرطاس ايضا الصحيفة[١٧٣]، ونقل موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب، قال: لما اصيب المسلمون باليمامة فزع ابو بكر رضي الله عنه الى القرآن، وخاف ان تهلك منه طائفة وانما كان في العسب والرقاع، فأقبل الناس بما كان معهم وعندهم حتى جُمعَ على عهد ابي بكر رضي الله عنه فكتبوه في الورق وجمعوه فيه، فكان ابو بكر اول من جمع القرآن في الصحف[١٧٤].

وتسمية ما جمع فيه زيد القرآن بالصحف لايعني ان تلك الصحف لم تكن على شكل منظم، اذ نجد في بعض الروايات ان تلك الصحف كانت محفوظة بين لوحين. كما روي عن علي رضي الله عنه انه قال[١٧٥]: «رحمة الله على ابي بكر، كان اول من جمع القرآن بين اللوحين». وجاء في بعض الروايات تسمية تلك الصحف باسم المصحف، كما نقل الطبري: «ان ابا بكر اول من ورّث الكلالة، وجمع المصحف»[١٧٦]. ولعل التسمية بالصحف كانت قد ظهرت اولاً، أخذاً من قوله تعالى: «رسول من الله يتلو صُحُفاً مطهرة» (البينة ٢). لاسيما ان القرآن كان اول كتاب عرفه المسلمون في تلك الفترة ثم ظهرت كلمة «المصحف» بعد ذلك[١٧٧] وهي بضم

---

(١٧١) ابن حجر: فتح الباري ٩/١٣.

(١٧٢) ابن حجر: فتح الباري ٩/١٦.

(١٧٣) ابن منظور: لسان العرب مادة «قرطس».

(١٧٤) انظر ابو شامة: المرشد الوجيز ص٦٤، وابن حجر: فتح الباري ٩/١٦ والسيوطي: الاتقان ١/١٦٩.

(١٧٥) ابن ابي داود: كتاب المصاحف ص٥.

(١٧٦) جامع البيان ١/٢٨.

(١٧٧) روى موسى بن عقبة، عن ابي شهاب انه قال: لما جمعوا القرآن فكتبوه في الورق، قال ابو بكر: التمسوا له اسماً، فقال بعضهم: السفر، وقال بعضهم المصحف، فإن الحبشة يسمونه المصحف، وكان ابو بكر اول من جمع كتاب الله، وسماه المصحف. «انظر ابو شامة: المرشد الوجيز ص٦٤، والسيوطي: الاتقان ١/١٤٩».

الميم وكسرها، والمصحف: هو الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين[١٧٨].

وجاء في الرواية السابقة عن جمع القرآن الصفات التي تميز بها زيد بن ثابت ليقع عليه اختيار الخليفة الاول للقيام بهذه المهمة غير اليسيرة، التي قال عنها زيد نفسه انها أثقل من نقل جبل من الجبال، ومنبع تلك الصعوبة هو كون الامر يتعلق بكتاب الله تعالى، فلا مجال لاقل خطأ في كتابته، ثم ان وسائل الكتابة الصعبة ـ آنذاك ـ لا تساعد على كتابة نص طويل ـ مثل القرآن ـ بسهولة ويسر. لكن زيد بن ثابت كان أجدر الصحابة للقيام بهذا العمل، لانه كما قال الصديق:

١ ـ كونه شاباً، فيكون انشط لما يطلب منه.

٢ ـ وكونه عاقلاً، فيكون اوعى له.

٣ ـ وكونه لا يتهم، فتركن النفس اليه.

٤ ـ وكونه كان يكتب الوحي لرسول الله، فيكون اكثر ممارسة له، وهذه الصفات التي اجتمعت له قد توجد في غيره، لكن متفرقة[١٧٩].

وقد كان هنالك تعاون جاد بين الصحابة لمساعدة زيد بن ثابت في انجاز جمع القرآن، فقد روي ان ابا بكر طلب من عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت أن يقعدا على باب المسجد، وينادیا: من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف الالواح والعسب[١٨٠]. وكانا لا يقبلان من احد شيئاً حتى يشهد شهيدان[١٨١]. وقد قيل ان المراد بالشهيدين أن يشهدا على ان ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم[١٨٢]، قال ابو شامة[١٨٣]: «انما كان قصدهم ان ينقلوا من عين المكتوب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكتبوا من حفظهم...».

---

(١٧٨) ابن منظور: لسان العرب مادة صحف.

(١٧٩) انظر ابن حجر: فتح الباري ٩/١٣.

(١٨٠) انظر في ذكر المواد التي كتب عليها القران الكريم قبل جمعه في الصحف: ابن حجر: فتح الباري ٩/١٤. والعيني: عمدة القاري ٢٠/١٧ والسيوطي: الاتقان ١/١٦٨.

(١٨١) ابن ابي داود: كتاب المصاحف ص٦. والسيوطي: الاتقان ١/١٦٦.

(١٨٢) ابو شامة: المرشد الوجيز ص٥٥. وابن حجر: فتح الباري ٩/١٥. والسيوطي: الاتقان ١/١٦٧.

(١٨٣) المرشد الوجيز ص٥٧.

ويتبين من ذلك ان زيد بن ثابت اتبع في جمع القرآن طريقة التحقيق العلمي التي تنأى عن الخطأ، وقد اتبع الطريقة بدقة، دونها كل الدقة، فقد طلب ابو بكر الى كل من عنده من القرآن شيء مكتوب ان يجيء به الى زيد، واجتمع لزيد من الرقاع والاكتاف وجريد النخل ورقيق الحجارة ومن كل ما كتب اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن عليه، الشيء الكثير. عند ذلك جعل يرتبه ويوازنه ويستشهد عليه ولايثبت آية إلا اذا اطمأن الى اثباتها كما اوحيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم[١٨٤].

واستغرقت عملية جمع القرآن ما يقرب من سنة او دون ذلك، فقد تم ذلك بعد غزوة اليمامة، التي وقعت في الاشهر الاخيرة من السنة الحادية عشرة، وقبل وفاة الصديق رضي الله عنه التي كانت في جمادي الاخرة سنة ثلاث عشرة[١٨٥]. ولاشك في ان جمع القرآن تم قبل وفاة الصديق بفترة، اذ ان الرواية تشير الى ان الصحف التي جمع فيها القرآن أودعت عنده حتى توفاه الله، ثم انتقلت الى الخليفة الثاني بعده عمر بن الخطاب، ثم عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر، لتكون رهن تصرف الخليفة الثالث.

وكان جمع القرآن من جلائل الاعمال التي ازدان بها عهد الصديق، ان لم يكن اجلها[١٨٦]، وكان علي بن ابي طالب رضي الله عنه قد قال: «رحم الله ابا بكر، كان اول من جمع القرآن بين اللوحين» وفي رواية اخرى انه قال: «اعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، فانه اول من جمع القرآن بين اللوحين»[١٨٧].

وكان المسلمون قد اتجهوا، بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى كتابة القرآن في الصحف، ولم يعتمدوا في تعلم القرآن وقراءته على الحفظ فقط[١٨٨]، ولكن معظم تلك التدوينات لم تكن منظمة أو موحدة، وانما كانت تعتمد على الجهد

---

(١٨٤) محمد حسين هيكل: الصديق ابو بكر ص٢٢٢.

(١٨٥) تاريخ خليفة ١/١٠٥. وانظر: محمد طاهر الكردي: تاريخ القران ص٢٨.

(١٨٦) محمد حسين هيكل: الصديق ابو بكر ص١٦.

(١٨٧) ابو عبيد: فضائل القران ورقة ٣٥و. وابن ابي داود: كتاب المصاحف ص٥.

(١٨٨) انظر في اخبار بعض تلك المصاحف: ابن ابي داود: كتاب المصاحف ص١٢٧ و١٥٥ و١٥٧.

الفردي في الغالب، ولم يتو فر لشيء من تلك الصحف، التي كان يحتفظ بها بعض الصحابة وغيرهم من المسلمين، ما كان قد توافر للصحف التي جمع فيها القرآن زيد بن ثابت في خلافة الصديق. ولذلك سوف نجد ان الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه يأمر في خلافته بنقل عدة نسخ من هذه الصحف وارسالها الى الامصار الاسلامية، ويأمر بحرق ماسواها، مما هو مكتوب فيه القرآن وكان بأيدي المسلمين، ويوجههم الى نقل القرآن من هذه المصاحف لكي تتوحد المصاحف التي يقرأ فيها المسلمون، ويحفظ القرآن من الاختلاف.

المبحث الثالث: انتساخ المصاحف وتوزيعها على الامصار في خلافة عثمان

امتدت الفتوحات الاسلامية خارج ارض الجزيرة العربية، ودخل في الدين اقوام من مختلف الاجناس، فاقبلوا على تعلم القرآن والعربية والتفقه بأحكام الدين، وكان الصحابة الذين نزلوا في الامصار الاسلامية يعلمون من حولهم من المسلمين امور الدين، ويقرئونهم القرآن، على نحو ما كانوا يقرؤون في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رخص للصحابة بقراءة القرآن بالنطق الذي يستطيعون تحقيقه، بقوله: «ان هذا القرآن انزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه»، نظراً لاختلاف لهجات القبائل العربية في الجزيرة، ولم يحملهم النبي صلى الله عليه وسلم على تعلم نطق معين، على نحو ما ستعرف في موضوع قراءة القرآن، ان شاء الله.

وقد مرت سنوات خلافة الصديق، التي تم فيها ذلك الانجاز العظيم الذي حفظ القرآن مصوناً كاملاً في الصحف التي ظلت محفوظة في دار الخلافة، ثم مرت سنوات خلافة عمر ابن الخطاب، التي امتدت فيها الفتوحات في كل جانب، وقد أتاحت حركة الفتوح ان يلتقي المسلمون، خاصة في الجيل الذي أخذ من الصحابة، وان يتدارسوا القرآن، ويتذاكروه وكان كل واحد منهم يقرأه على نحو ما تعلمه من الصحابي الذي أخذ عنه وكان في قراءات الصحابة بعض وجوه رخصة الاحرف السبعة، فتلقى جيل التابعين تلك القراءة عمن اقراهم من الصحابة، وتراجعوا في بعض وجوه القراءات، وادعى بعضهم ان قراءته أصح من قراءة غيره.

وكانت مظاهر تلك الحالة اشد وضوحاً في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه وتنقل لنا الروايات صوراً لذلك الاختلاف في القراءة، وعلى مستويات متعددة، فمن ميدان الحرب واختلاف الجند، الى ميدان التعليم واختلاف المعلمين وتلاميذهم. ويبدو ان اخبار ذلك الاختلاف قد تكاثرت على مسامع الخليفة في المدينة ومعه كبار الصحابة، مما جعلهم يفكرون في الوسائل التي يمكن بها تفادي النتائج الخطيرة التي قد تترتب على مثل هذه الظاهرة.

وكانت الكوفة التي نزلها الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه معلماً وفقيهاً، من اكثر الامصار الاسلامية التي تشير الروايات على وقوع اختلاف حول القراءة فيها، حتى ان عمر بن الخطاب كان قد أنكر على ابن مسعود قراءته «عتى» بدل «حتى» وكتب اليه[١٨٩]: «أما بعد، فان الله تعالى انزل القرآن بلغة قريش، فاذا اتاك كتابي هذا فأقرىء الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل»، وكان ذلك قبل ان يجمع عثمان الناس على قراءة واحدة، وعبدالله بن مسعود كان من قبيلة هذيل[١٩٠].

ومما يروى في ذلك ايضاً انه «لما كان في خلافة عثمان رضي الله عنه جعل المعلم يعلم قراءة الرجل والمعلم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك الى المعلمين، فبلغ ذلك عثمان، فقام خطيباً، فقال: انتم عندي تختلفون فيه فتلحنون، فمن نأى عني من الامصار اشد اختلافاً فيه واشد لحناً، اجتمعوا يا اصحاب محمد، واكتبوا للناس اماماً يجمعهم»[١٩١].

وقال ابو شامة في هذا الصدد[١٩٢]: ثم ان اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يقرؤون بالقراءة التي اقراهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقنهم باذن الله عز وجل، الى ان وقع الاختلاف بين القراء في زمن عثمان وعظم الامر فيه وكتب الناس بذلك من الامصار الى عثمان، وناشدوه الله تعالى في جمع الكلمة وتدارك الناس قبل تفاقم الامر، وقدم حذيفة بن اليمان من غزوة ارمينية، فشافهه بذلك،

---

(١٨٩) انظر ابو شامة: المرشد الوجيز ص١٠١. وابن حجر: فتح الباري ٩/٢٧.
(١٩٠) انظر امثلة اخرى للاختلاف في القراءة: ابن داود: كتاب المصاحف ص١٢ ـ ١٤.
(١٩١) ابن ابي داود: كتاب المصاحف ص٢١ والطبري: جامع البيان ١/٢٧.
(١٩٢) المرشد الوجيز ص٦٨.

فجمع عثمان عند ذلك المهاجرين والانصار، وشاورهم في جمع القرآن على قراءة واحدة ليزول بذلك الخلاف وتتفق الكلمة، فاستصوبوا رأيه، وحضوه عليه، ورأوا انه من احواط الامور للقرآن. فاستحضر الصحف من عند حفصة، ونسخها في المصاحف، وبعث بها الى الامصار».

وبذلك تضافرت الاسباب والدواعي التي جعلت عثمان ـ رضي الله عنه ـ يفكر في جمع الناس على مصحف موحد في رسمه، يجمع المسلمين على قراءة واحدة، وهي القراءة العامة التي كان يقرأها عامة الصحابة في المدينة، التي كتب زيد بن ثابت القرآن بها زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجمعه في خلافة الصديق بها وقد روي عن ابي عبدالرحمن عبدالله بن حبيب السلمي «ت ٧٣هـ» وهو الذي بعثه عثمان مع مصحف اهل الكوفة حين ارسل المصاحف الى الامصار، انه قال: كانت قراءة ابي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والانصار واحدة، كانوا يقرأون قراءة العامة، وهي القراءة التي قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبريل مرتين في العام الذي قبض فيه وكان علي ـ رضي الله عنه ـ طوال أيامه يقرأ مصحف عثمان ويتخذه أماما[١٩٣].

وكان اول ما بدأ به الخليفة الثالث لتحقيق ذلك العمل الجامع ان خطب الناس في المدينة، وفيهم كثير من الصحابة، يستشيرهم ويدعوهم الى القيام بهذه المهمة فوافقوه على رأيه وقالوا له: «فنعم ما رأيت». حسب ما رواه ابن ابي داود عن علي رضي الله عنه[١٩٤] والرواية المشهورة التي تحكي خطوات ذلك العمل الكبير هي التي رواها كثير من المحدثين والمؤرخين في كتبهم[١٩٥]. ونص في هذه الرواية، كما نقلها البخاري هي: حدثنا موسى. حدثنا ابراهيم، حدثنا ابن شهاب ان أنس بن مالك حدثه: ان حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي اهل الشام في فتح ارمينية واذربيجان مع اهل العراق. فافزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال

---

(١٩٣) انظر: ابو شامة: المرشد الوجيز ص٦٧. والزركشي: البرهان ١/٢٣٧.

(١٩٤) كتاب المصاحف ص٢٢.

(١٩٥) انظر ابو عبيد: فضائل القرآن ورقه ٣٦و٠ والبخاري: الجامع الصحيح ٦/٢٢٦. وابن ابي داود: كتاب المصاحف. ص١٨ وابن النديم: الفهرست ص٢٤ والداني: المقنع، ص٥ وابن الاثير: الكامل ٣/٥٥ والزركشي: البرهان. ١/٢٣٦ وابن خلدون: العبر ٢/١٠١٩، والسيوطي: الاتقان ١/١٦٩.

حذيفة لعثمان: ياامير المؤمنين، ادرك هذه الامة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فارسل عثمان الى حفصة ان ارسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها اليك. فارسلت بها حفصة الى عثمان.

«فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص. وعبدالرحمن بن الحارث ابن هشام، فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا.

«حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة، فأرسل الى كل افق مما نسخوا، وامر بما سواه من القرآن في كل صحيفة او مصحف ان يحرق».

وتبين هذه الرواية السبب الذي جعل الخليفة يأمر بتنفيذ هذا العمل، الذي اشرنا اليه قبل قليل، وهو الاختلاف الذي حصل في قراءة القرآن الكريم، ولخطورة هذه الظاهرة على مستقبل القرآن ومستقبل الامة الاسلامية امر الخليفة الصحابة الاربعة بنسخ عدة نسخ من الصحف التي جمع فيها زيد بن ثابت القرآن في خلافة ابي بكر الصديق، وارسل هذه النسخ الى الامصار الاسلامية، ثم امر باحراق ما سواها من الصحف والمصاحف، مما كان بأيدي المسلمين، حتى يؤتى هذا العمل ثمرته في توحيد المسلمين وجمعهم على مصحف موحد في رسم الكلمات، وهو ما يؤدي الى توحيد القراءة، وقد سارع كل من لديه شيء مكتوب من القرآن الى احراقه ثقة منه بالمصحف الذي تمتد اصوله الى ماكتب بين يدي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذي ارتضته جموع الصحابة والتابعين في المدينة وفي غيرها من الامصار[١٩٦].

---

(١٩٦) يروى ان عبدالله بن مسعود واهل الكوفة معه لم يرضوا باحراق مصاحفهم، حين وصلهم المصحف من المدينة، لكنهم وافقوا الامة على ما اجمعت عليه بعد ذلك واحرقوا مصاحفهم، وانتسخوا المصاحف من مصحف المدينة، الذي ارسل اليهم «انظر: فضائل القران ورقة ٣٦ظ، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/٣٤٣ وابن ابي داود: كتاب المصاحف ص١٤ و١٨ والقرطبي: الجامع لاحكام القران ١/٥٢ وابن حجر: فتح الباري ٩/١٩ ـ ٢٠ و٩/٤٨ ـ ٤٩».

وقد بينت الرواية السابقة المصدر الذي نقلت منه الجماعة تلك المصاحف فهو نفس الصحف التي جمع فيها زيد بن ثابت القرآن في خلافة ابي بكر وقد عرفت من قبل ان هذه الصحف نقلت من القطع التي كتب عليها القرآن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ كان كلما نزل عليه الوحي دعا بعض من يكتب له ما نزل عليه من القرآن.

فالمصاحف التي نسخت في خلافة عثمان رضي الله عنه تمثل القرآن الذي كتب باملاء النبي صلى الله عليه وسلم سوى ان ما كتب امام النبي كان مفرقاً في القطع المختلفة، وجمعت تلك القطع في خلافة الصديق في صحف منظمة، على نحو ما تقدم من قبل.

فغاية العمل الذي تم في خلافة الصديق هو جمع القرآن في مكان واحد يؤمن فيه عليه من الضياع او النسيان، وغاية العمل الذي تم في خلافة عثمان هو جمع المسلمين على قراءة واحدة، بعد حصول الاختلاف في القراءة في بعض الجهات، بتوزيع المصاحف التي نسخت في المدينة المنورة، الموحدة في طريقة رسم الكلمات، والحقيقة أن العمل الذي تم في خلافة عثمان ليس جمعاً للقرآن، فالقرآن جمع في خلافة الصديق، وأن ما تم في خلافة عثمان اشبه ما يكون باخراج طبعة موحدة متعددة النسخ للقرآن الكريم.

ولابد من الوقوف عند قول عثمان رضي الله عنه للجماعة القرشيين الذين تولوا نسخ المصاحف مع زيد: «اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فانما نزل بلسانهم».

وجاء في رواية «في عربية من عربية القرآن» موضع «في شيء من القرآن»[١٩٧] فان هذا القول يمثل القاعدة التي سار عليها الصحابة في النسخ، فتجنبوا بذلك كل احتمال لوقوع اي اختلاف لهجي في المصحف. وهو يدل على الحرص الكبير على ان يكتب القرآن على النطق الذي سمع من النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن. وهو

---

(١٩٧) البخاري: الجامع الصحيح ٦/ ٢٢٤.

نطق اهل مكة، وقريش خاصة عشيرة النبي: والثلاثة الذين كانوا مع زيد لا شك في انهم اقدر على تقليد النبي من زيد بن ثابت. لانهم نشأوا في بيوت قرشية، وزيد من اهل المدينة اصلاً، ونُقِلَ لنا نموذج مما وقع بينهم من ذلك، قال ابن شهاب[١٩٨]: «فاختلفوا يومئذ في التابوت والتابوه»، فقال القرشيون: التابوت، وقال زيد: التابوه، فرفع اختلافهم الى عثمان، فقال: اكتبوه التابوت، فانه نزل بلسان قريش».

★★★

اما الجماعة الذين تولوا العمل فقد كان على رأسهم زيد بن ثابت الانصاري الذي كان الزم الصحابة لكتابة الوحي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي تولى جمع القرآن في الصحف في خلافة ابي بكر، واجتمع لزيد من الصفات ما أهله للقيام بذلك العمل خير قيام. فقد تربى زيد في كنف الوحي، فكان عمره عند وصول النبي الى المدينة مهاجراً احدى عشرة سنة[١٩٩]. وروي انه قال: «أتى بي النبي صلى الله عليه وسلم مقدمة المدينة، فقالوا: يارسول الله هذا غلام بني النجار، وقد قرأ مما انزل عليك سبع عشرة سورة، فقرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعجبه ذلك»[٢٠٠]. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استصغر يوم بدر جماعة فردهم، منهم زيد بن ثابت فلم يشهد بدراً، ثم شهد أحداً وما بعدها من المشاهد[٢٠١]. ورمي يوم اليمامة بسهم فلم يضره[٢٠٢]. وقد ظل زيد في المدينة لا يقدم عليه احد في القضاء والفتوى والفرائض والقراءة، حتى توفي سنة خمس واربعين للهجرة رضي الله عنه[٢٠٣].

---

(١٩٨) انظر ابن ابي داود: كتاب المصاحف ص١٩ وابن حجر: فتح الباري ٩/٢٠.

(١٩٩) ابن قتيبة: المعارف ص١١٣ وابن عبد البر: الاستيعاب ٢/٥٣٧ والذهبي: سير اعلام النبلاء ٢/٢٠٧.

(٢٠٠) الذهبي: سير اعلام النبلاء ٢/٢٠٧.

(٢٠١) ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/٥٣٧.

(٢٠٢) المصدر نفسه ٢/٥٣٨.

(٢٠٣) انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/٣٥٩، وقد اختلف في تحديد سنة وفاة زيد الا ان اكثر المصادر تذهب الى ما ذكرناه «انظر: ابن سعد: الطبقات ٢/٣٦٠ وابن قتيبة: المعارف ص١١٣ وابن عبد البر: «الاستيعاب ٢/٥٤٠ والذهبي: سير اعلام النبلاء ٢/٣١٥.

وكان يعاون زيد بن ثابت ثلاثة من شباب الصحابة، وهم جميعاً نشأوا في بيوت قرشية، وهم: عبدالله بن الزبير، الذي ولد في السنة الاولى من الهجرة وهو اول مولود في الاسلام من المهاجرين بالمدينة، واستشهد بمكة سنة ثلاث وسبعين من الهجرة[٢٠٤]. وسعيد بن العاص، الذي ولد عام الهجرة ايضاً وتوفي سنة تسع وخمسين، وكان سعيد احد اشراف قريش ممن جمع السخاء والفصاحة[٢٠٥]. والثالث عبدالرحمن الحارث بن هشام المخزومي، وكان ابن عشر سنين حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢٠٦] فكان هؤلاء الثلاثة القرشيون يعملون مع زيد بن ثابت حتى انجزوا نسخ المصاحف التي ارسلت من المدينة الى الامصار الاسلامية.

ويروي ابن سعد[٢٠٧]. وابن ابي داود[٢٠٨]. ان محمد بن سيرين. قال: جمع عثمان لما اراد ان يكتب المصاحف اثني عشر رجلاً من قريش والانصار، فيهم ابي بن كعب[٢٠٩] وزيد بن ثابت. وكأن ابتداء الامر كان للجماعة الاربعة الذين انتدبهم عثمان اولا، ثم احتجوا الى من يساعد في الكتابة[٢١٠]. خاصة ان المصاحف التي نسخت كانت غير قليلة.

اما عدد المصاحف التي تم نسخها في المدينة في خلافة عثمان، وارسلت الى الامصار فانه غير محدد، وما جاء في رواية انس بن مالك السابقة عن نسخ المصاحف من ان عثمان «ارسل الى كل افق بمصحف مما نسخوا» يفهم منه ان

---

(٢٠٤) ابن عبدالبر: الاستيعاب ٣/٩٠٥.

(٢٠٥) المصدر نفسه ٢/٦٢١.

(٢٠٦) المصدر نفسه ٢/٨٥٧.

(٢٠٧) الطبقات الكبرى ٣/٥٠٢.

(٢٠٨) كتاب المصاحف ص٢٥.

(٢٠٩) وقع اختلاف بين المؤرخين في السنة التي توفي فيها ابي بن كعب، وفي مشاركته في نسخ المصاحف. فجاء ان وفاته كانت سنة تسع عشرة او اثنتين وعشرين او ثلاثين او اثنتين وثلاثين. «انظر ابن قتيبة: المعارف ص١١٣ وابن عبدالبر: الاستيعاب ١/٦٥ والذهبي: سير اعلام النبلاء ١/٢٧٨، وهناك جملة اخبار تدل على مشاركة ابي في كتابة القران سواء اكانت ترجع الى جمع القران في خلافة ابي بكر ام الى نسخ المصاحف في خلافة عثمان.

(٢١٠) القسماني: لطائف الاشارات ١/٦٣.

عدد المصاحف كان كبيراً. وقد جاء في رواية لابن داود ان عثمان «ارسل الى كل جند من اجناد المسلمين بمصحف»[٢١١]. والجند: العسكر والمدينة، والجمع اجناد[٢١٢].

وجاءت روايات متأخرة عن جيل الصحابة تتحدث عن عدد تلك المصاحف، فنقل ابن ابي داود حمزة بن حبيب الزيات «ت ١٥٦هـ»[٢١٣]: «كتب عثمان اربعة مصاحف، فبعث بمصحف منها الى الكوفة، فوضع عند رجل من مراد، فبقي حتى كتبت مصحفي عليه، وحمزة القائل كتبت مصحفي عليه». وروى ابن ابي داود انه سمع ابا حاتم سهل بن محمد السجستاني «ت ٢٥٥ هـ على خلاف» قال[٢١٤]: «لما كتب عثمان المصاحف حين جمع القرآن كتب سبعة مصاحف، فبعث واحداً الى مكة، وآخر الى الشام، وآخر الى اليمن، وآخر الى البحرين، وآخر الى البصرة وآخر الى الكوفة، وحبس بالمدينة واحداً». وقال السيوطي: لم يسمع لمصحفي اليمن والبحرين خبر[٢١٥]. قال الداني[٢١٦]: والإول اصح وعليه الائمة.

واذا كانت هذه الروايات غير قاطعة في تحديد عدد المصاحف التي ارسلها الخليفة الثالث فان تأمل الاسباب التي ادت الى انتساخ المصاحف يُسَوِّغُ القول بأن كل الامصار الاسلامية قد وصلها المصحف الموحد في الترتيب والهجاء، سواء اكان ذلك نسخة مما انتجته الجماعة التي اوكل اليها الخليفة الثالث ذلك العمل ام نسخة كتبت من احدى تلك النسخ، اذ ان المسلمين سارعوا الى نسخ المصاحف من النسخ التي ارسلها عثمان الى الامصار، ولم تمض الا فترة يسيرة حتى كانت المصاحف التي بأيدي المسلمين كثيرة العدد، ولكنها موحدة في ترتيبها، ورسم الكلمات فيها.

---

(٢١١) كتاب المصاحف ص٢٠، وانظر ابن حجر: فتح الباري ٩/ ٢٠.

(٢١٢) ابن منظور: لسان العرب مادة «جند».

(٢١٣) كتاب المصاحف: ص٣٤.

(٢١٤) كتاب المصاحف ص٣٤.

(٢١٥) الاتقان ١/ ٢٢٤. وقد ذكر القرطبي «الجامع لاحكام القران ١/ ٥٤» ان عثمان وجه للعراق والشام ومصر بأمهات.

(٢١٦) المقنع ص٩، وانظر: ابو شامة: المرشد الوجيز ص٧٢.

اما السنة التي تم فيها نسخ المصاحف وتوزيعها، فهي في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه لا شك في ذلك، ويرجح ابن حجر ان ذلك تم في سنة خمس وعشرين من الهجرة، وهو الوقت الذي ذكر اهل التاريخ ان ارمينية فتحت فيه. وقال: «وغفل بعض من ادركناه فزعم ان ذلك كان في حدود سنة ثلاثين، ولم يذكر لذلك مستنداً»[٢١٧].

★★★

كان نسخ المصاحف قد خضع للمراجعة والتدقيق، على نحو ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يطلب من زيد بن ثابت قراءة ما كتبه، فان كان فيه سقط اقامه. وقد سبق في رواية جمع القرآن ان زيد بن ثابت فقد آيتين من آخر سورة التوبة، اي لم يجدهما مكتوبتين، قد سمعهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتمسها فوجدهما مع خزيمة ابن ثابت فأثبتهما في سورتهما. وهذا امر يدل على مراجعة ما كتب من القرآن خشية ان يكون فيه نقص.

وجاء في رواية الزهري عن خارجة بن زيد، بعد رواية انس بن مالك عن نسخ المصاحف «قال ابن شهاب: واخبرني خارجة بن زيد بن ثابت انه سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الاحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت اسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الانصاري[٢١٨]: «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» (الاحزاب ٢٣.) فالحقناها في سورتها في المصحف»[٢١٩]. قال ابن حجر «وظاهر حديث زيد بن ثابت

---

(٢١٧) فتح الباري ٩/١٧. وانظر السيوطي: الاتقان ١/ ١٧٠ وقد حدد ابن الاثير «الكامل ٣/ ٥٥» تاريخ نسخ المصاحف بسنة ثلاثين، وتابعه في ذلك ابن خلدون «العبر ٢/١٠١٨».

(٢١٨) اختلفت الروايات في تحديد اسم الصحابي الذي وجد زيد بن ثابت عنده الآيات التي افتقدها، ففي بعض الروايات ورد باسم ابي خزيمة الانصاري، وفي بعضها خزيمة بن ثابت الانصاري، وتقارب الاسمين ووردهما في بعض الروايات واحداً مكان الاخر قد يرجح انهما اسمان لصحابي واحد هو خزيمة بن ثابت الانصاري وان كان بعض العلماء ذهب الى انهما اسمان لاثنين من الصحابة «انظر ابن سعد» الطبقات الكبرى ٣/ ٤٩٠ و٤/ ٣٧٨ وابن حجر، فتح الباري ٩/ ٢١ والقسطلاني، لطائف الاشارات ١/ ٥٢ هامش ٢».

(٢١٩) البخاري : الجامع الصحيح ٦/ ٢٢٦.

هذا انه فقد آية الاحزاب من الصحف التي نسخها في خلافة ابي بكر، حتى وجدها مع خزيمة بن ثابت» ولكن ابن حجر يميل الى ان فقدان آية الاحزاب كان في نسخ المصاحف[٢٢٠].

ويبدو ان ماذكره ابن حجر من ان ظاهر الحديث يدل على ان فقد آية الاحزاب كان ايضاً في جمع القرآن، هو الراجح. وقد ذهب الى ذلك ابن كثير في كتابه «فضائل القرآن»[٢٢١] وجاء فيه بعض الروايات ذكر فقدان زيد لآيتي براءة وآية الاحزاب اثناء جمع القرآن، في خلافة ابي بكر مصرحاً به[٢٢١].

وجاءت روايات اخرى تدل على مقدار ما بذله الصحابة من جهد من اجل ان تكون كتابة القرآن في المصاحف دقيقة، من ذلك ما ذكرناه من ان الزهري ذكر ان الكتاب اختلفوا في كتابة كلمة «التابوت». وقد روى ابو عبيد في كتابه «فضائل القرآن» والطبري في تفسيره «جامع البيان» روايتين عن ابي سعيد هانيء البربري الدمشقي مولى عثمان بن عفان تؤكدان هذا المعنى.

جاء في الرواية الاولى ان هانئاً قال: كنت الرسول بين عثمان وزيد بن ثابت، فقال زيد: سله عن قوله: «لم يتسن»، او «لم يتسنه» (البقرة٢٥٩) فقال عثمان: اجعلوا فيها هاء[٢٢٢].

وجاء في الرواية الثانية ان هانئاً قال: كنت عند عثمان، وهم يعرضون المصاحف، فأرسلني بكتف الى ابي بن كعب، فيها «لم يتسن» و«فأمهل الكافرين»، و«لاتبديل للخلق». قال فدعا بالدواة فمحا احدى اللامين وكتب «لا تبديل لخَلْقِ الله» (الروم ٣٠) ومحا «فأمهل» وكتب «فَمَهِّلِ الكافرين» (الطارق ١٧) وكتب «لم يَتَسنَّهْ» (البقرة ٢٥٩) الحق فيها الهاء[٢٢٤].

---

(٢٢٠) فتح الباري ٩/٢١.
(٢٢١) فضائل القران ص٤٦ وانظر ابن عاشر الانصاري: فتح المنان ص٣٤.
(٢٢٢) انظر: الباقلاني: نكت الانتصار ص٢٣٠ ومقدمة كاتب المباني لمجهول ص٢٠.
(٢٢٣) فضائل القران ورقة ٣٦ظ وجامع البيان ٣/٢٧ وانظر ابن فارس: الصحابي ص٩.
(٢٢٤) فضائل القران ورقة ٣٧و٠ وجامع البيان ٣/٢٨.

وهاتان الروايتان توضحان انه كانت هناك مراجعة واستشارة في اثبات صورة كلمة ما، وتبيان مدى الحرص على ان يأتي المصحف دقيقاً في رسمه، حين يتوقف الكتبة عن الحاق لام او حذف الف، حتى يستشار في ذلك كبار الصحابة من كتبة الوحي وحفظه القرآن[٢٢٥]. وقد قال القاضي ابو بكر الباقلاني[٢٢٦]: «وجميع القرآن الذي انزله الله تعالى، وأمر بأثباته ولم ينسخه، ولا رفع تلاوته، هو الذي بين اللوحين، الذي حواه مصحف عثمان رضي الله عنه لم ينقص منه شيء ولا زيد منه شيء، نقله الخلف عن السلف»

وقد اتفقت كلمة المستشرقين وعلماء الغرب المنصفين ممن لهم دراسات في هذا المجال. وهم لايؤمنون بكون القرآن منزلاً من الله ـ على صحة نقل القرآن وانتهائه بنصه الى النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهناك بضع شهادات لكبار العلماء من المستشرقين تؤكد ان القرآن هو الكتاب الوحيد في الدنيا الذي بقي نصه محفوظاً من التحريف، من بين كتب الديانات جميعاً، وانه لم يتطرق شك الى اصالته، وان كل حرف نقراه اليوم نستطيع ان نثق بأنه لم يقبل اي تغيير من يوم نزوله[٢٢٧].

المبحث الرابع: ترتيب الآيات والسور في المصحف:

تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن، طيلة ثلاث وعشرين سنة، فكان ينزل عليه من القرآن في المرة الواحدة السورة او الآيات او الآية الواحدة، وكان يتلوه على الصحابة، ويأمرهم بكتابته، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن، وانما كان مفرقا في الالواح والقطع المختلفة التي كتب عليها. وقد جمع القرآن في نسخة واحدة في صحف منظمة من تلك الالواح، في خلافة ابي بكر الصديق رضي الله عنه ثم نقلت عدة نسخ من تلك النسخة وأرسلت الى الامصار

---

(٢٢٥) روى ابن ابي داود في كتاب المصاحف «ص٢١»، والداني في المقنع «ص٧»: ان الذين كانوا يكتبون القرآن ربما اختلفوا في الشيء فيذكرون الرجل قد تلقى ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعله ان يكون غائباً، او في بعض البوادي، فيكتبون ما قبله وما بعده ويدعون موضعه حتى يجيء او يرسل اليه: «انظر ابو شامة: المرشد الوجيز ص٦٠ والسيوطي: الاتقان ١/ ١٧٠».

(٢٢٦) نكت الانتصار ص٥٩ وانظر ابو شامة: المرشد الوجيز ص٤٥ والسيوطي: الاتقان ١/ ١٧٥.

(٢٢٧) انظر نصوص تلك الاقوال في كتاب: النبي الخاتم، لابي الحسن علي الحسني الندوي: ص٣٠ ـ ٣١.

الاسلامية في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه فكل ما هو موجود اليوم من مصاحف في الارض انما هو من تلك المصاحف المنقولة من الصحف. ولكن ما هو الاساس الذي قام عليه ترتيب الآيات في السور، وترتيب السور في المصحف؟ وكيف كانت قراءة الصحابة للقرآن قبل جمعه في المصحف في خلافة ابي بكر الصديق، ونسخ الصحف في المصاحف في خلافة عثمان؟

روى الداني بسنده عن عبدالله بن وهب، احد تلاعذة مالك بن انس «ت ١٧٩» امام دار الهجرة بعد عصر التابعين، قال ابن وهب[٢٢٨]: «سمعت مالكاً يقول: انما ألّف القرآن على ما كانوا يسمعون من قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم». والتأليف هنا معناه الترتيب، وفي اللغة ألفت الشيء تأليفا، اذا وصلت بعضه ببعض، وجمعت بعضه الى بعض[٢٢٩]. وقول الامام مالك هنا يدل على ان ترتيب القرآن في المصحف تم على وقت ما كان يسمع الصحابة القرآن مرتباً في قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما يشمل قول مالك ترتيب الآيات وترتيب السور جميعاً.

(٢) اما ترتيب الآيات في السور فقد قال عنه الامام السيوطي[٢٣٠]: «الاجماع والنصوص المترادفة على ان ترتيب الآيات توقيفي، لا شبهة في ذلك، واما الاجماع فنقله غير واحد، منهم الزركشي في البرهان[٢٣١]. وابو جعفر بن الزبير في مناسباته، وعبارته: ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره، من غير خلاف في هذا بين المسلمين».

ومن النصوص الدالة على ذلك ما رواه عبدالله بن العباس، عن عثمان بن عفان، انه قال[٢٣٢]: «ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مما يأتي عليه الزمان

---

(٢٢٨) الداني: المقنع ص٨. وانظر: علم الدين السخاوي: الوسيلة ورقة ٣ظ وابو شامة: المرشد الوجيز ص٤٦ والقرطبي: الجامع لاحكام القرآن ١/ ٦٠ والزركشي: البرهان ١/ ٢٧٥ والسيوطي: الاتقان ١/ ١٧٥.

(٢٢٩) انظر: ابن منظور: لسان العرب مادة «الف».

(٢٣٠) الاتقان ١/ ١٧٢.

(٢٣١) البرهان ١/ ٢٥٦.

(٢٣٢) احمد بن حنبل: المسند ١/ ٣٩٩ و٤٩٨. قال السيوطي عن هذا الحديث «الاتقان ١/ ١٧٢»: «اخرجه احمد وابو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم». وانظر: ابو عبيد: فضائل القرآن ورقة ٣٥و. وغريب الحديث له ٤/ ١٠٣ وابن ابي داود: كتاب المصاحف ص٣١ وقال الحاكم «المستدرك ٢/ ٢٢١»: «حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه».

ينزل عليه من السور ذوات العدد، وكان اذا انزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده، فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا[٢٢٣] وينزل عليه الآية، فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا...».

ومن ذلك ايضاً ما روى عن زيد بن ثابت انه قال: «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع...»[٢٢٤]. والرقاع جمع رقعة، وهي القطع التي كتب عليها القرآن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال البيهقي: وهذا يشبه ان يكون المراد به: تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة في سورها، وجمعها فيها باشارة النبي صلى الله عليه وسلم[٢٢٥].

فكان ترتيب الآيات في سورها معروفاً للصحابة ببيان النبي صلى الله عليه وسلم وتعليمه ذلك لهم، وقراءته للقرآن عليهم، وبذلك لم يعرف عن الصحابة انهم اختلفوا في موقع أية من القرآن، بل كان كل أية قد عرف موضعها، وقد مر في احاديث جمع القرآن ان زيدا افتقد أيتين من أخر سورة التوبة، وأية من سورة الاحزاب، اي لم يجدها مكتوبة اول الامر فالتمسها فوجدها عند خزيمة بن ثابت الانصاري. وتأمل قول زيد في أيتي التوبة: «فألحقتها في سورتها» وقوله في أية الاحزاب: «فألحقناها في سورتها في المصحف». وقد مر بيان ذلك.

ومن النصوص الثابتة تؤكد ان اثبات ما أثبت في المصحف وطريقة ترتيبه انما كان بتوقيف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يملك الصحابة الا الاخذ به، وتجنب العمل بخلافه. هذه الرواية التي نقلها البخاري، عن عبدالله بن الزبير، قال: قلت لعثمان بن عفان: «والذين يُتَوَفَّوْنَ منكمْ ويَذَرُونَ أزواجاً» قد نسختها الآية

---

(٢٢٣) قوله: «السورة التي يذكر فيها كذا وكذا» يشير الى اسم السورة، فقد كان يعبر عن اسم السورة بمثل: «السورة التي تذكر فيها البقرة او السورة التي يذكر فيها ال عمران». وانظر ابن ابي شيبة: الكتاب المصنف ٢/٤٩٧. والبخاري: الجامع الصحيح ٦/٢٣٩. وابن حجر: فتح الباري ٩/٨٧. والسيوطي: الاتقان ١/١٥١.

(٢٢٤) البنا الساعاتي: الفتح الرباني ١٨/٣٠ والحاكم: المستدرك ٢/٢٢٩ وقال عنه: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» واقره الذهبي.

(٢٢٥) الزركشي: البرهان ١/٢٥٦.

الاخرى فلم تكتبها؟ قال: يا ابن اخي، لا أغير شيئاً منه من مكانه[٢٣٦]. فكل شيء في القرآن قد عرف مكانه، ولا يملك الصحابة الا ان يثبتوه كما تلقوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبي خلط آيات السور ويأمر بقراءة آيات كل سورة على نحو ما اقراها وعلمها للصحابة، كالذي رواه ابو عبيد قاسم بن سلام بسنده: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال: مررت بك وانت تقرأ من هذه السورة، ومن هذه السورة. فقال بلال: اخلط الطيب بالطيب، فقال اقرأ السورة على وجهها، او قال على نحوها. وفي رواية أخرى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لبلال: آذا قرأت السورة فانفذها[٢٣٧].

ولا ينبغي ان تغيب عن البال تلك الوحدة الموضوعية والاسلوبية التي طبعت كثيراً من سور القرآن وهو يؤكد ان ترتيب الآيات في السور ليس فيه مجال لاجتهاد الصحابة، انما تم بتوجيه النبي صلى الله عليه وسلم لاصحابه بتعليم جبريل ذلك له، فقد كان يعارضه بالقرآن في رمضان مرة في كل عام، وعارضه مرتين في العام الذي قبض فيه صلى الله عليه وسلم. «فالامر الذي لا ريبة فيه ان الآيات قد جمعت سوراً في عهد رسول الله وبتوقيفه»[٢٣٨].

اما ترتيب السور وتتابعها في المصحف فقد ذهب كثير من العلماء الى ان ذلك بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم وانه يدخل في قول الامام مالك: «انما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(٢٣٦) ابن حجر: فتح الباري ٨/١٩٣ والمقصود بـ«الآية الاخرى» في قول عبدالله بن الزبير هو قوله تعالى: «والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجاً يتربصن بأنفسهن اربعة اشهر وعشراً» (البقرة ٢٣٤). فان بعض علماء السلف ذهب الى ان هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: «والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجاً، وصية لازواجهم متاعاً الى الحول غير اخراج» (البقرة ٢٤٠)، على ان في المسألة تفصيلاً يمكن الرجوع اليه في مصادره «انظر النحاس: الناسخ والمنسوخ ص٧٢ ـ ٧٧ والعيني: عمدة القاري» ١٨/١١٢١ ومصطفى زيد: النسخ في القرآن ٢/٧٧٦، والذي يعنينا من هذا الخبر هنا هو قول عثمان «يا ابن اخي لا اغير شيئاً منه من مكانه».

(٢٣٧) ابو عبيد: فضائل القرآن ورقة ٢٠و٠ وانظر السيوطي: الاتقان ١/٣٠٨.

(٢٣٨) محمد حسين هيكل: الصديق ابو بكر ص ٢٠٨.

وقد كانت اسماء السور معروفة بين الصحابة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم [٢٣٩] ولكنهم لم يكتبوها في المصحف في اوائل السور آنذاك، لانهم لم يكتبوا في المصحف الا الفاظ الوحي، وكانوا يقولون «جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء..» كما سيأتي بيان ذلك قريباً.

ويبدو ان ترتيب السور في المصحف عرفه الصحابة من قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد روى البخاري وغيره: ان جبريل عليه السلام كان يعرض القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم كل سنة مرة في شهر رمضان. فلما كان العام الذي قبض فيه عرضه عليه مرتين [٢٤٠].

وكان عدد من الصحابة يحفظون القرآن، منهم عثمان بن عفان، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وابو الدرداء، وزيد بن ثابت، وسعد بن عبيد، وابو زيد، وعبادة بن الصامت، وابو أيوب، وتميم الداري، ومجمع بن جارية، وعبدالله بن مسعود. وقد حفظ اكثرهم القرآن في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم [٢٤١]، ولابد ان يكون هؤلاء الصحابة يحفظون القرآن على نسق معين قد عرفوه من النبي صلى الله عليه وسلم ومن ثم لعلهم لم يجدوا صعوبة في ترتيب السور حين كتبوا القرآن في المصاحف، لشبرة ذلك بينهم.

ومما يتصل بذلك ان الصحابة رضوان الله عليهم كانوا لايدعون قراءة القرآن، وليم في كل يوم من ذلك نصيب، وبعضهم اوفر حظاً في ذلك من بعض، لاسيما وهم يسمعون القرآن يدعوهم الى ذلك، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرغبهم فيه بمثل قوله [٢٤٢]: «لا حسد الا في اثنتين، رجل علمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار. فسمعه جار له فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق...» ومثل قوله [٢٤٣]: «خيركم من تعلم

---

(٢٣٩) انظر الزركشي: البرهان ١/٣٦٩ والسيوطي: ١/١٥٠.

(٢٤٠) البخاري: الجامع الصحيح ٦/٢٢٩ وانظر ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/١٩٤.

(٢٤١) انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/٣٥٥ والبخاري: الجامع الصحيح ٦/٢٢٩ والزركشي: البرهان ١/٢٤١ والسيوطي: الاتقان ١/١٩٩.

(٢٤٢) (٢٤٣) الجامع الصحيح ٦/٢٣٦.

القرآن وعلمه». ومثل قوله[٢٤٤]: «اتلوه فان الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات».

ولذلك كان الصحابة لا يدعون قراءة القرآن في حضر ولا في سفر. وتأمل هذا الحوار بين معاذ بن جبل وابي موسى الاشعري، وهما في اليمن، بعثهما رسول الله الى هناك لتعليم اهل اليمن الدين والقران، قبل حجة الوداع. قال معاذ لابي موسى: كيف تقرأ القرآن؟ قال: قائماً وقاعداً، وعلى راحلتي، وانَفَوَّقُهُ تفَوُّقاً[٢٤٥] قال: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: انام اول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما احتسب قومتي[٢٤٦].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الصحابة بتعاهد القرآن[٢٤٧] وهو المواظبة عليه بالحفظ والترداد[٢٤٨]. وكان صلى الله عليه وسلم يقول[٢٤٩]: انما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الابل المعقلة، ان عاهد عليها أمسكها، وان أطلقها ذهبت».

ومما يصور شغف الصحابة بقراءة القرآن قصة عبدالله بن عمرو، فقد سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصة مشهورة: كيف تختم؟ قال: كل ليلة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأ القرآن في شهر، قال: اني اجد قوة، قال اقرأه في سبع ولا تزد على ذلك[٢٥٠].

ولا شك في ان قراءة الصحابة للقرآن على ذلك النحو، واعادتهم قراءته في كل اسبوع، او في اقل او اكثر، كانت تتم على نسق وترتيب للسور معروف بينهم. وهو ما يرجح ان ذلك الترتيب كان متلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعروفاً بين الصحابة، قبل جمع القرآن في الصحف وقبل نسخها في المصاحف.

---

(٢٤٤) الحاكم: المستدرك ١/٥٥٥.

(٢٤٥) قوله «اتفوقه» اي الازم قراءته ليلاً ونهاراً، شيئاً بعد شيء، يعني لا اقرأ وردي دفعة واحدة، بل هو كما يحلب اللبن ساعة بعد ساعة واصله مأخوذ من فواق الناقة، وهو ان تحلب ثم تترك ساعة حتى تدر ثم تحلب وهكذا دائماً «انظر العيني: عمدة القارىء ١٨/٣».

(٢٤٦) البخاري: الجامع الصحيح ٥/٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢٤٧) المصدر نفسه ٦/٢٢٨.

(٢٤٨) العيني: عمدة القارىء ٢٠/٤٩.

(٢٤٩) البخاري: الجامع الصحيح ٦/٢٢٧.

(٢٥٠) المصدر نفسه ٦/٢٤٢ ـ ٢٤٣ وانظر ابن حجر: فتح الباري ٩/٨٩.

قال ابن حجر: ومما يدل على ان ترتيب السور توقيفي ما اخرجه احمد وابو داود عن اوس بن ابي أوس حذيفة الثقفي: قال كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف... فذكر الحديث وفيه: فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم «طرأ عليَّ حزبي من القرآن، فأردت الا اخرج حتى أقضيه» قال أوس: فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه: ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور واحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل من ق حتى نختم. فهذا يدل على ان ترتيب السور على ما هو في المصحف الان كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢٥١].

ومما يؤكد ان ترتيب سور القرآن في المصحف كان معروفاً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وبتوجيه منه، وان ذلك الترتيب لم يكن من الصحابة عن رأي واجتهاد وانما كان ذلك منهم عن تتبع وانقياد، ما رواه ابو عبيد عن عائشة انها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم الليلة التمام، فيقرأ البقرة، وآل عمران والنساء، لا يمر بآية فيها استبشار الا دعا ورغب، ولا يمر بآية فيها تخويف الا دعا واستعاذ[٢٥٢].

وكذلك ما رواه البخاري عن عبدالله بن مسعود انه قال: في بني اسرائيل «الاسراء» والكهف، ومريم، وطه، والانبياء، انهن من العتاق الأول، وهن من تلادي[٢٥٣] فقد ذكرت السور في الاحاديث السابقة مرتبة على نحو ترتيبها في المصحف. وقد ورد ترتيب لبعض السور على نسق المصحف ايضاً في روايات اخرى[٢٥٤].

وقال السيوطي: ومما يدل على ان ذلك الترتيب توقيفي كون الحواميم رتبت ولاء، وكذا الطواسين، ولم ترتب المسبحات ولاء، بل فصل بين سورها. وفصل بين

---

(٢٥١) ابن حجر: فتح الباري ٩/٤٢ وانظر السيوطي: الاتقان ١/١٧٨.

(٢٥٢) فضائل القرآن ورقة ١٢و٠.

(٢٥٣) الجامع الصحيح ٦/٢٢٨ وانظر ابن حجر: فتح الباري ٩/٣٩ والسيوطي: الاتقان ١/١٧٨ والعتاق جمع عتيق وهو القديم النفيس من كل شيء. والتلاد كل مال قديم يورث عن الآباء «انظر ابن منظور: لسان العرب مادة تلد وعتق».

(٢٥٤) انظر: السيوطي: الاتقان ١/١٧٧ ـ ١٧٨.

طسم الشعراء وطسم القصص بطس النمل، مع انها اقصر منها. ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت المسبحات ولاء، واخرت طس النمل على القصص[٢٥٥].

واذا لم تكن هذه الروايات والدلالات قاطعة في كون ترتيب السور توقيفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدرجة التي نجدها في ترتيب الآيات، فانه لا نجد ما يدلنا الى ان ترتيب السور كان باجتهاد الصحابة[٢٥٦]. ثم ان هذه الروايات تشير الى ان هذا الترتيب للسور كان معروفاً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولعل ذلك كان بتوجيه منه، ومن ثم لم يجد الصحابة مشكلة في ترتيب السور، وهم يكتبون المصاحف، لانهم رتبوا الآيات والسور جميعاً على نحو ما كانوا يسمعون من قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعد، فانه باستعراض ما ذكرناه من روايات واخبار يتأكد لنا المعنى الذي نجده في قول الامام مالك بن انس السابق وهو: «انما الف القرآن على ما كانوا يسمعون من قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم». ويتأكد لنا ايضاً ما نجده في قول الامام الحافظ ابي عمرو الداني، في كتابه «البيان في عدّ اي القرآن» وهو: «القول عندنا في تأليف السور وتسميتها وترتيب آيها في الكتابة ان ذلك توقيف من رسول الله صلى الله عليه وسلم وإعلام منه به، لتوفر مجيء الاخبار بذلك، واقتضاء العادة بكونه كذلك، وتواطؤ الجماعة عليه، وبالله التوفيق»[٢٥٧].

المبحث الخامس: تطور شكل المصحف

كانت الكتابة العربية قبل الاسلام تتألف من ثمانية وعشرين حرفا، خالية من نقاط الاعجام، وليس هناك علامات للحركات، يدل ذلك النقوش المكتوبة على الحجر التي عثر عليها في الوقت الحاضر، ويعود تاريخ كتابتها الى العصر

---

(٢٥٥) الاتقان ١/١٧٩.

(٢٥٦) ما روى من انه كان لبعض الصحابة مصحف مرتب على نحو يغاير ما هو موجود في المصاحف، في بعض السور. لا يعارض القول بأن هذا الترتيب توقيفي، لان ذلك الترتيب لم ينقل الينا بطريق موثوق «انظر، ابن النديم: الفهرست ص٢٦. واذا صح نقل ذلك فانه كان قبل توحيد المصاحف في خلافة عثمان التي رتبت على ما ثبت في العرضة الاخيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي بها من كان آنذاك من الصحابة وغيرهم، واحراق ما سواها.

(٢٥٧) كتاب البيان في عد آي القرآن ورقة ٩ و١٠.

الجاهلي[٢٥٨]. وهناك كتابات اخرى ترجع الى السنين الاولى من تاريخ الاسلام، اشهرها النقش المؤرخ بسنة (١٣١هـ) والمحفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة[٢٥٩]. ونقش العصر الاسلامي الاول تشبه في كتابتها النقوش العربية التي ترجع الى العصر الجاهلي.

وقد كتب القرآن في المصاحف بالكتابة العربية وبالخصائص والمميزات التي كانت تمتاز بها آنذاك، فالحروف ليست معجمة، والحركات غير مرسومة، الى جانب مميزات اخرى تتمثل في حذف حروف المد احيانا، او رسم التاء المدورة مبسوطة، او وصل بعض الكلمات اوفصلها... الخ.

كذلك كان الصحابة قد جردوا القرآن حين كتبوه في المصاحف من كل زيادة ليست من النص القرآني، وكانوا يقولون «جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء»[٢٦٠]. فلم يكتبوا اسماء السور ولا ما يتعلق بكونها مكية او مدنية ولم يبينوا عدد آيها، ولا كانوا يشيرون الى رؤوس الآي ولا الخموس او العشور ولا الاجزاء.

اما مانجده اليوم في المصاحف من اعجام الحروف وعلامات للحركات وبيان لأسماء السور وذكر مكيها ومدنيها وعدد آيها، وبيان ارقام الآيات والاشارة الى الاجزاء والاحزاب فان ذلك كله انما اضيف في فترات لاحقة.

ويلاحظ ان استكمال المصحف لصورته التي بين ايدينا اليوم قد استغرق عشرات السنين، من تاريخ ارسال المصاحف لصورته التي بين ايدينا اليوم قد استغرق عشرات السنين، من تاريخ ارسال المصاحف الى الامصار الاسلامية في خلافة عثمان رضي الله عنه وقد واجهت تلك الاضافات الى المصحف معارضة قوية من كبار علماء التابعين ومن جاء بعدهم. فهذا ابراهيم النخعي (ت٩٦هـ) فقيه اهل الكوفة قد كره نقط المصاحف وكره العواشر والفواتح وان يكتب سورة كذا

---

(٢٥٨) انظر عن تلك النقوش: جواد علي: تاريخ العرب قبل الاسلام ٧/ ٢٧١ ـ ٢٧٨. وبلاشير: تاريخ الادب العربي ١/ ٧٠.

(٢٥٩) انظر عن المصدرين السابقين ٧/ ٣٤٥ و١/ ٧٦ على التوالي.

(٢٦٠) ابن ابي شيبة: الكتاب المصنف ٢/ ٤٩٧ وابو عبيد: غريب الحديث ٤/ ٤٩، الداني: المحكم ص١٠، السيوطي: الاتقان ٤/ ١٦٠.

وكذا، وكان يقول: «جردوا القرآن ولا تخلطو به[٢٦١]. كذلك كره هذه الزيادات كل من محمد بن سيرين والحسن البصري (توفيا ١١٠ هـ)[٢٦٢]، لكن الجيل الذي جاء بعد هؤلاء الائمة بدأ يتسامح في تلك الاضافات خاصة انها اصبحت ضرورية احياناً، مثل نقط الاعجام والحركات[٢٦٣]. لان القراءة في المصاحف المكتوبة بالكتابة العربية القديمة الخالية من النقط والحركات امر صعب على غير حفاظ القرآن، وقد يؤدي الى الخطأ في القراءة، ولهذا فكر علماء السلف من التابعين في ايجاد وسيلة تقس الناس اللحن في كتاب الله عز وجل.

وعلامات الحركات التي نجدها فوق الحروف وتحتها في الكتابة العربية سواء كانت في المصاحف او غيرها مرت بمراحل حتى اخذت هذا الشكل. فكانت في المرحلة الاولى على شكل نقط مدورة، بلون يخالف لون الكتابة، ثم المرحلة الثانية غيرت الى هذه العاملات الصغيرة.

ويبدو ان استعمال النقط للحركات قد تم منذ وقت مبكر يرجع الى النصف الثاني من القرن الهجري الاول. وهو عمل مرتبط بالعالم الجليل ابي الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هجرية. فانه قبل وفاته وضع اساس طريقة استعمال النقط للحركات، فيروى انه قال لكاتبه: «خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد، فاذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف، واذا كسرتها فاجعل النقطة في اسفله، فان اتبعت هذه الحركات غنة فانقط نقطتين، فابتدأ بالمصحف حتى اتى على آخره»[٢٦٤].

وانتشرت هذه الطريقة في تمثيل الحركات، واستمر العمل بها وحدها الى اواخر القرن الثاني الهجري عندما اخترع الخليل الحركات المعروفة اليوم، ولاشك في ان اختراع الخليل حل تدريجياً في الاستعمال.

---

(٢٦١) الداني: المحكم ص١١. والسيوطي: الاتقان ٤/ ١٦٠.

(٢٦٢) ابن ابي داود: كتاب المصاحف ص١٤١. والداني: المحكم ص١٠. والسيوطي: الاتقان ٤/ ١٦٠. وانظر القرطبي: الجامع لاحكام القران ١/ ٦٢.

(٢٦٣) ابن ابي داود: كتاب المصاحف ص١٤١ ـ ١٤٢. والداني: المحكم ص١١ ـ ١٣.

(٢٦٤) ابو بكر الانباري: كتاب ايضاح الوقت والابتداء في كتاب الله عز وجل ١/ ٣٩. وانظر الداني: المحكم ص٦. والسيرافي: اخبار النحويين البصريين ص١٦. ابو الطيب اللغوي: مراتب النحويين ص١٠. وابن النديم: الفهرست ص٤٠.

وقبل اختراع الخليل لعلامات الحركات تم تنقيط الحروف المتشابهة في الصورة في اواخر القرن الهجري الاول، على يد تلامذة ابي الاسود الدؤلي اذ ينسب هذا العمل الى نصر بن عاصم الليثي (ت.٩٠هـ) ويحيى بن يعمر (ت قبل ٩٠هـ) حيث وضعا النقاط على الحروف ازواجاً وافراداً، وبذلك تميزت صور الحروف المتشابهة، وصار لكل حرف صورة تغاير صورة غيره من الحروف، على مانجده في كتابتنا اليوم[٢٦٥].

وبعد ان حقق تلامذة ابي الاسود هذا التمييز بين الحروف المتشابهة قاربت الكتابة العربية على الاكتمال لكن ظهرت مشكلة اختلاط نقط الحركات بنقط الاعجام رغم اختلاف لون كل منهما، فنقاط الاعجام بنفس لون الكتابة بينما نقاط الحركات بلون آخر. وقد استطاع عالم العربية الخليل بن احمد (ت.١٧٠هـ) ان يحل ذلك الاشكال حين جعل الحركات حروفاً صغيرة بدل النقط، فالضمة واو صغيرة فوق الحرف، والكسرة ياء مردودة تحت الحرف، والفتحة الف مائلة فوق الحرف، ووضع الخليل الى جانب ذلك علامات للهمزة والتشديد والروم والاشمام[٢٦٦].

اما علامات رؤوس الآي فانها أضيفت اولاً على شكل ثلاث نقاط عند رأس الآية ثم تطورت الى دائرة. وظهر في داخلها رقم الاية في فترات متأخرة، كذلك ادخل الناس في المصاحف فواتح السور وارقام الاجزاء ومايشبه ذلك. وقد كره ذلك في باديء الامر بعض علماء السلف، لانه لم يكن معروفاً في المصاحف التي كتبها الصحابة، وتسامح من جاء بعدهم في هذه الزيادات، لانها مما يفيد القاريء ولانها لاتلتبس بنص القرآن[٢٦٧].

وهكذا بمرور السنين اخذ المصحف شكله الاخير بعد ان استوفت الكتابة علامات الحركات ونقط الاعجام، وبعد ان كتبت اسماء السور وعدد الآيات

---

(٢٦٥) انظر ابو احمد العسكري شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص١٢، حمزة الاصفهاني: التنبيه على حدوث التصحيف ص٢٧.

(٢٦٦) الداني: المحكم ص٦ ـ ٧ ابو الحجاج البلوي: الف باء ١/٧٦.

(٢٦٧) انظر الداني: المحكم ص١١. السيوطي: الاتقان ٤/١٦٩.

وارقامها وغير ذلك، لكن صور الكلمات حافظت على اشكالها التي رسمت بها في المصاحف العثمانية، فقد الف علماء السلف المتقدمون كتباً وصفوا لنا فيها طريقة رسم الكلمات في تلك المصاحف، فحافظ خطاطو المصاحف على تلك الاشكال في مختلف العصور الى حد كبير[٢٦٨]. ولعل اشهر تلك الكتب كتاب «المقنع في معرفة مرسوم مصاحف اهل الامصار» لابي عمرو عثمان بن سعيد الداني المتوفى سنة ٤٤٤هـ، وهو مطبوع.

كذلك الف علماء السلف في موضوع اعجام الحروف ونقط الحركات وضبطها عدة مؤلفات أشهرها كتاب ابي عمرو الداني المسمى «المحكم في علم نقط المصاحف»، وهو مطبوع أيضاً.

وقد يسرت الطباعة الحديثة نشر ما لايحصى من النسخ الموحدة من القرآن الكريم ورغم هذا الاثر غير المحدود لتسهيل نشر المصاحف الذي احدثته الطباعة، فانها لم تكن ذات أثرٍ ملحوظ في شكلها العام وطريقة كتابتها، لان الرسم المصحفي كان قد اكتمل من جوانبه المتعلقة بحصر اللفظ منذ وقت مبكر بعد ان وضع الخليل بن احمد علامات الحركات وغيرها، وبعد ان استخدمها نساخ المصاحف في اتجاهين:

الاول: ساد في المشرق، يغلب على هذا الاتجاه استعمال الخط المشرقي اللين «النسخ» والعلامات التي وضعها الخليل واستعملها الكتاب واهل اللغة.

الثاني: هو الاتجاه الذي يمتاز باستعمال الخط المغربي، ويظهر ميلاً اكثر للابقاء على العلامات القديمة، وقد ساد في بلاد المغرب الاسلامي.

ولاتزال آثار هذين الاتجاهين بادية على ما يطبع من مصاحف الى اليوم لكنها في الواقع لا تؤثر في شيء على نص القرآن، الذي يقرأ بطريقة واحدة، بأي الرسمين كتب.

ويكاد ينعقد الاجتماع على ان اول مصحف أخرجته المطابع وراى النور كان في سنة ١٦٩٤م، الذي وقف على طبعه هنكلمان، في مدينة هامبورج بالمانيا[٢٦٩]،

---

(٢٦٨) انظر الزركشي: البرهان ١/ ٢٧٦ والسيوطي: الاتقان ٤/ ١٤٥.

(٢٦٩) حفني ناصف: تاريخ الادب ص١١٢. محمد طاهر الكردي: تاريخ القرآن ص١٦ و١٨٦، وصبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن ص٩٩.

وتوالت طباعة المصاحف منذ ذلك التاريخ ودخلت البلاد الاسلامية فظهرت المصاحف المطبوعة في عاصمة الخلافة العثمانية ومصر والهند وغيرها من بلاد المسلمين، وقد طبع المصحف في بلادنا في السنوات الاخيرة.

★★★

وتوجد الان في مكتبات العالم مجموعة كبيرة من المصاحف المخطوطة القديمة او قطع منها، بعضها مكتوب على الرق، وبالخط الكوفي القديم. مجردة من النقط والشكل ومن كثير مما الحق بالمصاحف من اسماء السور وعدد آيها وغير ذلك، بحيث تبدو اقرب الى الصورة التي كانت عليها المصاحف الاولى[٢٧٠].

ويثار السؤال القديم مرة اخرى في الوقت الحاضر وهو هل يمكن ان يكون واحد من هذه المصاحف القديمة الباقية احد المصاحف العثمانية الاصلية؟

ان اغلب الباحثين يميل الى استبعاد ذلك، اذ من المتعذر ـ اليوم ـ العثور على مصحف كامل كتب في القرن الاول او الثاني وعليه تاريخ نسخه او اسم ناسخه[٢٧١]. وكذلك فانها في الغالب غير مجردة تماماً من العلامات التي ادخلت على المصاحف في وقت متأخر. الى جانب ان تأكيد ذلك يحتاج الى أدلة تاريخية ومادية واضحة وقوية، ودراسة متعددة الوجود وهو مالم يتح للدراسين ـ بعد ـ القيام به.

ومهما كان الرأي في تلك المصاحف فانها ـ دون شك ـ قديمة ترجع الى القرون الهجرية الاولى، بل ربما الى القرن الاول بالذات، خاصة حين لايظهر فيها اي اثر للاصلاحات التي ادخلت على الخط العربي في النصف الثاني من القرن الهجري الاول. الا بعض العلامات النادرة احياناً، وهي بذلك اقرب الى الفترة التي يحتمل ان تكون المصاحف العثمانية موجودة فيها وربما نسخت منها او من مصحف نسخ من احدها. وموضوع هذه المصاحف القديمة لايزال بحاجة الى دراسة مفصلة، تكشف عن كثير من ظواهر رسمها، وتجيب عن بعض ما يثار حولها من اسئلة.

★★★

---

(٢٧٠) انظر جولد تسهر: مذاهب التفسير الاسلامي ص٢٩٨، محمد طاهر الكردي: تاريخ القرآن ص١١٩ ـ ١٢٠، ناصر النقشبندي: المصاحف الكريمة في صدر الاسلام مقال في مجلة سومر ١٢ ,١٥.

(٢٧١) ناصر النقشبندي: المصاحف الكريمة ١٢/ ٣٤.

وعلى هذا النحو اخذ المصحف الشريف شكله الاخير الذي نجده بين ايدينا، منذ زمن مبكر، ولم يؤد ما أدخل عليه من اضافات في ضبط الكتابة، او بيان اسماء سور وعدد الآيات والاجزاء ـ الى اية زيادة في النص القرآني او نقصانه، بل زادته تلك الاضافات دقة وضبطاً. فالمسلمون منذ العصر الاول للاسلام الى وقتنا الحاضر يقرؤون القرآن بطريقة واحدة، ولم يؤثر تقادم العصور في النص القرآني فقد هيأ الله سبحانه وتعالى ـ له اسباب البقاء، حفظاً في الصدور، وكتابة في السطور، منذ زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم الى عصرنا هذا. وحين ظهرت الطباعة اسهمت في نشر ملايين النسخ من المصحف وايصالها الى يدي الناس في كل مكان.

واذا أخذت مصحفاً، تجده بين يديك، من المصاحف المطبوعة، وحاولت مقارنته باحدى النسخ القديمة من المصاحف المكتوبة على الورق، بالخط الكوفي المجرد القديم، لوجدت النص واحداً، والتطابق بينهما تاماً سوى ان المصحف القديم مكتوب بالخط الكوفي على الرق، والمصحف المطبوع، وهي اختلافات شكلية لا تؤثر في نص القرآن شيئاً.

ويتحقق بكل هذا وعد الله تعالى في حفظه القرآن من التبديل او التحريف، في قوله سبحانه: «انا نحن نزلنا الذكر، وانا له لحافظون»، فالقرآن الكريم حجة الله الباقية في الارض، على مدى العصور، فالله تعالى هو الذي هيأ للقرآن اسباب حفظه حين انزله على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقاً طيلة ثلاثة وعشرين عاماً، وحين كتابته على القطع المتفرقة بأمره عليه الصلاة والسلام وحين جمعه في الصحف لمنظمة في خلافة ابي بكر الصديق، وحين نسخه في المصاحف في خلافة عثمان. ثم بعد ذلك حين تناقله المسلمون جيلاً بعد جيل، حفظاً في الصدور، وكتابة في السطور، دون تغيير او تبديل وهذه ظاهرة لانجدها قد حصلت في امة اخرى مع كتابها ابداً.

المبحث السادس: معرفة المكي والمدني:

١ ـ تعريف المكي والمدني:

لم ينزل القرآن الكريم جملة واحدة، ولكنه نزل مفرقاً، في ثلاث وعشرين سنة، ثلاث عشرة منها عاش النبي صلى الله عليه وسلم فيها في مكة، وعشر سنين منها عاشها في المدينة، ومن القرآن ما نزل في مكة ومنه مانزل في المدينة ومنه مانزل خارج مكة والمدينة، ومن القرآن مانزل في الليل، ومنه مانزل في النهار، فكان القرآن ينزل في مختلف الاوقات ومختلف الاماكن.

وقد اهتم العلماء بهذا الجانب من تاريخ القرآن، وتتبعوا السور والآيات يبينون مكان او زمان نزولها، واطلقوا على هذه المباحث «علم المكي والمدني» وذكر السيوطي ان جماعة من العلماء أفردوه بالتصنيف منهم مكي والعز الديرني[٢٧٢]. وألف ابو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري (ت ٤٠٦ هـ) كتاباً موجزاً سماه «كتاب التنزيل وترتيبه»[٢٧٣]، ذكر فيه خمسة وعشرين وجهاً تتعلق بمكان او زمان نزول القرآن قال فيه[٢٧٤]: «ومن اشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب مانزل بمكة ابتداء ووسطاً وانتهاء، وترتيب مانزل بالمدينة كذلك... فهذه خمسة وعشرون وجهاً، من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له ان يتكلم في كتاب الله عز وجل».

وللعلماء في تعريف المكي والمدني ثلاثة مذاهب[٢٧٥]،

الاول: المكي هو مانزل قبل الهجرة، والمدني هو مانزل بعدها، سواء بمكة ام بالمدينة عام الفتح او عام حجة الوداع، في سفر ام في حضر، والزمان هو اساس هذا التعريف. وهو الراجح في المذاهب الثلاثة والمعول عليه (الصبحي ١٠٨/١)

---

(٢٧٢) الاتقان ٢٢/١.

(٢٧٣) ذكره الزركشي «البرهان ١٩٢/١» والسيوطي «الاتقان ٢٢/١» باسم «التنبيه على فضل علوم القرآن». والعنوان الذي اثبتناه هو ما كتب على مخطوطة الكتاب المحفوظة في دار الكتب الظاهرية في دمشق.

(٢٧٤) كتاب التنزيل وترتيبه ورقة ٢١٢ظ ـ ٢٢٢و. وانظر الزركشي: البرهان ١٩٢/١، والسيوطي: الاتقان ٢٢/١.

(٢٧٥) الزركشي: البرهان ١٧٨/١ والسيوطي: الاتقان ٢٢/١.

وقد عرف هذا الاتجاه في تعريف المكي والمدني منذ زمن مبكر، فقد روى الداني عن يحيى بن سلام (ت ٢٠٠ هـ) انه قال[٢٧٦]: «ما نزل بمكة وما نزل بطريق المدينة قبل ان يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فهو من المكي، وما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم في اسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدني».

الثاني: المكي مانزل بمكة، ولو بعد الهجرة، والمدني مانزل بالمدينة اي ان مكان النزول للآية هو الاساس في هذا التعريف، وقد قسم هبة الله بن سلامة البغدادي المفسر (ت ٤١٠هـ) المكي الى قسمين، هما[٢٧٧]:

المكي الاول: وهو مانزل في مكة قبل الهجرة.

المكي الاخير: وهو مانزل فيها بعد الفتح.

ولاشك في ان المذهب في التعرف لايشمل كل سور القرآن وآياته، لان من القرآن مانزل خارج مكة والمدينة.

الثالث: المكي ماوقع خطاباً لاهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لاهل المدينة واساس هذا التعريف يعتمد على موضوع الآيات او السور، لكنه لايشمل إلا قسماً يسيراً من القرآن، لان كثيراً من القرآن لم يكن خطاباً لاهل مكة او اهل المدينة.

وقد رجح معظم العلماء التعريف الاول، لانه يقوم على اساس شامل، لان السور او الآيات لابد ان تكون قد نزلت قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة، او بعدها، بغض النظر عن مكان النزول.

٢ ـ كيفية معرفة المكي والمدني:

لم ينقل النبي صلى الله عليه وسلم كان يوقف الصحابة على زمن نزول السور او مكانه، لان ذلك امر من يعرفه اكثر الصحابة بحكم معايشتهم للدعوة ولنزول القرآن الكريم، وقد ذكر العلماء طريقين لمعرفة المكي والمدني، سماعي وقياسي[٢٧٨].

(٢٧٦) الداني: البيان في عد اي القرآن ورقة ٤ ظ.

(٢٧٧) الناسخ والمنسوخ ص٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٢٧٨) الزركشي: البرهان ١/١٨٩.

فالسماعي ما وصل الينا الخبر بذكر جهة نزوله، وقد قال القاضي ابو بكر الباقلاني[٢٧٩]: «انما يرجع في معرفة المكي والمدني الى حفظ الصحابة والتابعين».

واما القياسي فهو يقوم على جملة ضوابط لتحديد مالم يرد فيه نص من السور، وتتصل تلك الضوابط بأسلوب السور وموضوعاتها، ومن تلك الضوابط:

١ ـ كل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض فهي مدنية، وكل سورة فيها ذكر القرون الماضية فهي مكية.

٢ ـ كل سورة فيها قصة آدم وابليس فهي مكية، إلا البقرة.

٣ ـ كل سورة فيها ذكر المنافقين فمدنية سوى العنكبوت.

٤ ـ كل سورة فيها «كلا» فهي مكية.

٥ ـ كل سورة في اولها الحروف المقطعة فهي مكية، إلا البقرة وآل عمران وفي الرعد خلاف.

٦ ـ ما كان في القرآن «ياأيها الذين آمنوا» فهو مدني، وماكان «ياأيها الناس» فمنه مكي ومدني، واكثره مكي.

وهذه الضوابط مستخلصة من عدة روايات عن الصحابة والتابعين، وبعض العلماء المتقدمين[٢٨٠].

٣ ـ اهمية معرفة المكي والمدني:

هذا البحث التاريخي في سور القرآن وآياته له فوائد عدة في مجال الدراسة القرآنية وما يتصل بها، منها[٢٨١]:

١ ـ تتوقف معرفة الآيات الناسخة والمنسوخة على معرفة ماتنزل اولا، قال ابو جعفر النحاس[٢٨٢]: وانما نذكر ماتنزل بمكة لأن فيه أعظم الفائدة في الناسخ والمنسوخ، لأن الآية

---

(٢٧٩) السيوطي: الاتقان ١ / ٢٣.

(٢٨٠) الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص ٢٩٤ والداني: البيان في عد آي القرآن ورقة ٤٠.

(٢٨١) انظر: مناع القطان: مباحث في علوم القرآن ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٢٨٢) النحاس: الناسخ والمنسوخ ص ٢١ وانظر الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص ٢٩.

إذا كانت مكية، وكان فيها حكم، وكان في غيرها حكم غيره نزل بالمدينة، علم أن المدنية نسخت المكية).

٢ ـ ان تتابع الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم سايـر تاريـخ الدعـوة بأحداثهـا في العهد المكي والمـدني،منذ بـدأ وحي القرآن حتى آخـر آية نـزلت، والقرآن من هذه الناحية يعدّ المرجع الاصيل لـدراسة السـيرة النبويـة وترتيب السور زمنياً يمكننا من تصور تاريخ السيرة تصوراً اكثـر جلاء في ضـوء الآيات القرآنية الكريمة.

٣ ـ ان تتبع السور المكية والمدنية والنظر في موضوعاتهاواسلوبهايقفنا على المنهج الذي رسمه القرآن للدعوة في مراحلها المختلفة، ففي مكة نزل القـرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ليخـاطب اناسـاً غلبت عليهم مظاهـر الجاهليـة في العقيدة والاخلاق، وفي الاقتصاد والاجتماع على السواء، فجاء القرآن يريد ان يغير ذلك كله الى عبودية خالصة لله وحده، فتتلقى البشرية منه نظامها الذي ارتضاه لهـا، ولهذا فقد جاء اسلوب السور المكية، خاصة ما نزل اولاً، اسلوباً قوياً زاجراً، فهذه الآيات القصار، وهذه الفواصل المتداركة، وهذه الصور الباهرة، اسلوب يشد اليه الاسماع والالباب، فكان هذا الاسلوب القرآني المعجز هو الذي فتح آذان وقلوب العرب ليسمعوا القرآن ويتدبروا معانيه، ويؤمنوا بما جاء به.

وكانت موضوعات السور المكية تتحدث عن قضية واحدة، هي قضية العقيدة وان تعددت سور عرضها، فقد كان القرآن المكي يفسر للانسان سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله ولم يتجاوز القرآن المكي المعاني الأساسية في قضية العقيدة الى غيرها من تفاصيل النظام وامور الحلال والحرام، إلا قليلاً، فلما استقرت تلك المعاني في قلوب العصبة المؤمنة التي آواها الله تعالى الى المدينة المنورة، حيث كوّن رسول الله صلى الله عليه وسلم نواة المجتمع الاسلامي والدولة المسلمـة الاولى، عندها انزل الله تبارك وتعالى من القرآن ما يبين تفاصيل نظام الحياة في المجتمع المسلم، فجاءت السور المدنية تبين الفرائض والحدود بأسلوب مترسـل متمهل، وهكذا حققت السور المكية دورها في بناء القاعدة التي يقوم عليها بناء الاسلام، وحققت السور المدنية دورها في تثبيت تفاصيل ذلك النظام.

٤ ـ ترتيب السور المكية والسور المدنية:

عرفت من قبل ان ترتيب السور في المصحف لم يكن ترتيباً زمنياً بحسب النزول، وكذلك لم ترتب الآيات في السور ترتيباً زمنياً بحسب النزول، وانما ألف القرآن على ماكانوا يسمعون من قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام العلماء بجهود ليست قليلة لترتيب السور بحسب النزول، أما ترتيب الآيات على ذلك النحو فلم يفكروا فيه، لصعوبة ذلك، على نحو ماتوضحه هذه الرواية: قال محمد بن سيرين، قلت لعكرمة: ألفوه كما أنزل الاول فالاول. فقال عكرمة: لو اجتمعت الانس والجن على ان يؤلفوه ذلك التأليف ما استطاعو قال محمد: وأراه صادقاً[٢٨٢].

وكانت تلك الجهود اكثر توفيقاً في محاولة ترتيب السور اجمالاً على ذلك النحو، معتمدين على نزول أول السورة او معظمها، وقد روى عن ابن عباس انه: «كانت اذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء»[٢٨٣].

وقد وصلتنا عدة روايات عن الصحابة والتابعين في بيان السور المكية والسور المدنية: عن عبدالله بن عباس، وابي الشعثاء جابر بن زيد والحسن بن ابي الحسن، وقتادة، وعلي ابن ابي طلحة[٢٨٤].

ولعل اشهر الروايات في ذلك ما نقله ابن الضريس في كتابه «فضائل القرآن» عن ابن عباس انه قال: «اول ما نزل من القرآن بمكة، وما أُنزِلَ منه بالمدينة، الأول، فالأول فكانت اذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان اول مانزل من القرآن اقرأ باسم ربك.. ثم انزل بالمدينة سورة البقرة، ثم الانفال، ثم آل عمران، ثم الاحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء، ثم اذا زلزلت، ثم الحديد، ثم سورة محمد «القتال» ثم الرعد، ثم سورة الرحمن، ثم هل اتى على

---

(٢٨٣) انظر: ابن الضريس: فضائل القرآن ١/٦٧و.

(٢٨٤) المصدر نفسه ١/٦٦و. وانظر السيوطي: الاتقان ١/٢٦.

(٢٨٥) انظر: الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص٣٩٥. ابن النديم: الفهرست ص٢٥. والداني: البيان ورقة ٤٤ظ ـ ٤٥و. والزركشي: البرهان ١/١٩٣ ـ ١٩٤. والسيوطي: الاتقان ١/ ٢٤ ـ ٢٩.

الانسان ثم يا أيها النبي اذا طلقتم، ثم لم يكن، ثم الحشر، ثم اذا جاء نصر الله، ثم النور، ثم الحج، ثم المنافقون، ثم المجادلة، ثم الحجرات، ثم لم تحرم ثم الجمعة، ثم التغابن، ثم الحواريون «الصف» ثم الفتح، ثم المائدة، ثم التوبة، فذلك ثمان وعشرون سورة.....»[٢٨٦].

(٢٨٦) فضائل القرآن ١/٦٥ظ، وانظر السيوطي: الاتقان ١/٢٦.

الفصل الثالث

المحكم والمتشابه

القرآن الكريم كتاب مبارك انزله الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات الى النور، فبين معالم التوحيد واخلاص العبودية لله تعالى، وحكى قصة خلق الكون والانسان، واخبار القرون الماضية، بما فيه العبرة للناس، وبين اصول العبادات والمعاملات للمجتمع المسلم، وانبأ عن مستقبل البشرية وكيفية نهاية الحياة وكشف الستر عن حجب الغيب فأطلع البشرية على اخبار القيامة والبعث والحساب والجنة النار، وشف عن بعض اسرار الكون وحقائقه بما يتناسب وقابلية البشر وادراكهم، ورمز الى امور اخرى ليست من مدركات العقل البشري استأثر الله بعلمها وحجبها عنا في الحياة الدنيا، ومن هنا أحس العلماء امام هذا الشمول القرآني ان في القرآن آيات لا يستطيع الانسان تصور معناها بأكثر مما يدل عليه ظاهر الفاظها، عرفت في مجال الدراسة القرآنية باسم «الآيات المتشابهة» وماسواها من سائر القرآن واضحة الدلالة بينة المعنى، وعرفت باسم «الآيات المحكمة»[٢٨٧].

وقد أستند العلماء في هذا التقسيم الى قوله تعالى في سورة آل عمران «الآية ٧»: «هو الذي أنزلَ عليكَ الكتابَ، منه آياتٌ محكماتٌ هُنّ أمُّ الكتاب وأُخَرُ متشابهاتٌ، فأما الذين في قلوبهم زَيْغٌ فَيَتبّعون ما تشابهَ منه، أبتغاء الفتنةِ وأبتغاء تأويله، وما يعلمُ تأويلَهُ إلا اللّهُ. والراسخون في العلمِ يقولونَ آمنّا به كُلٌّ مِن عندِ رَبِّنا وما يَذّكرُ إلا أولو الألباب».

---

(٢٨٧) قال الله تعالى: «كتاب احكمت آياته، ثم فصلت، من لدن حكيم خبير» (هود ١). وقال تعالى: «الله نزّل احسن الحديث كتاباً متشابهاً» (الزمر ٢٣) والمراد باحكامه في الآية الاولى اتقانه وعدم تطرق النقص والاختلاف اليه. والمراد بتشابهه في الآية الثانية كونه يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والاعجاز. والقرآن من هذه الناحية محكم ومتشابه جميعه، وهو غير المعنى الذي نريد ان نتحدث عنه في هذا الموضوع. «انظر السيوطي: الاتقان ٢/٣».

وقد رُوي في سبب نزول هذه الآية، والآيات التي في اول سورة آل عمران، ان وفد نصارى نجران قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فخاصموه في طبيعة عيسى بن مريم عليه السلام بأن قالوا: ألست تزعم ان عيسى روح الله وكلمته، وتأولوا في ذلك مايقولون فيه من الكفر، فانزل الله عز وجل فيهم سورة آل عمران الى بضع وثمانين آية منها[٢٨٨].

ولاشك في ان نص الآية أعم من هذه المناسبة، فهي تصور موقف الناس على اختلافهم من القرآن، فالذين في قلوبهم زيغ وانحراف وضلال عن سواء الفطرة يتركون الاصول الواضحة الدقيقة التي تقوم عليها العقيدة والشريعة والمنهج العلمي للحياة الاسلامية، ويجرون وراء المتشابه الذي يعمل في تصديقه على الايمان بصدق مصدره، والتسليم بأنه هو الذي يعلم الحق كله، بينما الادراك البشري نسبي محدود المجال.

واما الراسخون في العلم الذين بلغ من علمهم ان يعرفوا مجال العقل وطبيعة التفكير البشري وحدود المجال الذي يملك العمل فيه بوسائله الممنوحة له، فهم يقولون: «آمنا به كل من عند ربنا»[٢٨٩].

وعلى هذا النحو فهم علماء السلف الآية الكريمة السابقة من سورة آل عمران، فقال عبيدة بن عمرو السلماني «ت٧٢هـ»[٢٩٠]: من أين يعلمون تأويله؟ وانما انتهى علم الراسخين الى ان قالوا: «آمنا به كل من عند ربنا».

وسئل الامام مالك عن قوله تعالى: «وما يعلم تأويله إلا اللّه»، أيعلم تأويله الراسخون في العلم؟ قال: لا، وانما معنى ذلك أن قال: وما يعلم تأويله إلا اللّه، ثم أخبر فقال: والراسخون في العلم يقولون: «آمنا به، كل من عند ربنا» وليس يعلمون تأويله[٢٩١].

---

(٢٨٨) الواحدي اسباب نزول القرآن ص ٩٠. وانظر الطبري جامع البيان ٣/١٧٧.
(٢٨٩) انظر: سيد قطب: في ظلال القرآن ٢/٢٦٩.
(٢٩٠) الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص٢٢٩.
(٢٩١) المصدر نفسه ص٢٣٠.
(٢٩٢) جامع البيان ٣/١٧١.

وقال الطبري[٢٩٣]: المحكم من أي القرآن ماعرف العلماء تأويله، وفهموا معناه وتفسيره، والمتشابه مالم يكن لاحد الى علمه سبيل. مما استأثر الله بعلمه دون خلقه والراسخون في العلم يقولون: «آمنا به، كل من عند ربنا» لا يعلمون ذلك، ولكن فصل علمهم في ذلك على غيرهم، العلم بأن الله هو العالم بذلك دون سواه من خلقه.

وقد ذهب الاكثرون من الصحابة والتابعين واتباعهم ومن بعدهم الى ان الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه، (وذهب القليل) الى عكس ذلك[٢٩٤].

ويدل على صحة مذهب الاكثرين امور منها[٢٩٥]:

١ ـ ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: «هو الذي انزل عليك الكتاب....» وقال: «فاذا رأيت الذين يتبعون ماتشابه منه فاولئك الذي سمى الله فاحذروهم».

٢ ـ ما أخرجه عبد الرزاق في تفسيره، والحاكم في مستدركه عن ابن عباس انه كان يقرأ: «وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون في العلم أمنا به» وهذه الآية، وان لم تثبت بها القراءة لعدم تواترها، ومخالفتها لخط المصحف، اقل درجاتها انها تفسير صحيح عن ابن عباس، ترجمان القرآن رضي الله عنه.

٣ ـ ويزيد ذلك ان الآية دلت على ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوضوا العلم الى الله، وآمنوا بما انزل، محكمه ومتشابهه.

وبناء على رأي الاكثرية في تفسير الآية تكون الواو في قوله: «والراسخون في العلم يقولون» للاستئناف، ويكون مابعدها جملة مكونة من مبتدأ وخبر، وتكون الواو على رأي غيرهم للعطف، وهو خلاف مذهب اليه جمهور اهل العلم[٢٩٦].

وينص علماء الوقف والابتداء على ان الوقف التام في الآية يكون عند قوله: «وما

---

(٢٩٣) رُوي عن مجاهد وقتادة انهما يذهبان الى ذلك، ولكنهما يفسران المتشابه بغير ما فسره به الجمهور، فعند مجاهد هو الآيات التي يصدق بعضها بعضاً «انظر: ابن حجر: فتح الباري ٨/٢٠٩» وعند قتادة هو المنسوخ «انظر: الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص٢٢٩».

(٢٩٤) انظر السيوطي: الاتقان ٣/٥ ـ ٨.

(٢٩٥) الطبري: جامع البيان ٣/١٨٢ والقرطبي: الجامع لاحكام القرآن ٤/١٦.

يعلم تأويله إلا الله «ثم يستأنف القاريء بعد ذلك قراءته بقوله «والراسخون...»[٢٩٦].

وعلى اساس من تلك الحقيقة القائلة بأن في القرآن آيات متشابهة لا يعلم تأويلها إلا الله ـ جعل اهل التفسير القرآن على ثلاثة أوجه[٢٩٧].

أحدها: مالا سبيل للوصول الى تأويله، وهو الذي استأثر الله بعلمه، وحجب علمه عن سائر خلقه.

الثاني: مالا يوصل الى تفسيره إلا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الثالث: ما كان علمه عند اهل العلم باللسان الذي نزل به القرآن.

وقد ورد بهذا المعنى أثر منقول من عبد الله بن عباس رضي الله عنه فقد رُوِيَ انه قال[٢٩٨]: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر احد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله».

ويكفي هنا ان نشير الى مثال واحد يذكره العلماء في متشابه القرآن، وهو الحروف المقطعة في اوائل بعض السور، مثل، ص، ق، ن، حم، طس، يس، الم، وغيرها.

وقد تباينت أراء العلماء في تحديد معنى هذه الحروف، فمن قائل انه لاسبيل الى معرفة معانيها، الى قائل ان كل حرف منها يدل على معنى او اسم، ويذهب في تحديد ذلك المعنى مذاهب شتى، وتتلخص تلك الآراء في[٢٩٩]:

١ ـ ان تلك الحروف اسماء للقرآن.

٢ ـ انها اسماء للسور.

٣ ـ قسم اقسم الله به.

---

(٢٩٦) ابو بكر الانباري: ايضاح الوقف والابتداء ٢/٥٦٥.

(٢٩٧) انظر: الطبري: جامع البيان ١/٣٢، ١/٤١، والسيوطي: الاتقان ٤/١٩١.

(٢٩٨) الطبري: جامع البيان ١/٣٤، وانظر: الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص٣٢٩. والزركشي: البرهان ٢/١٦٤.

(٢٩٩) انظر: الطبري: جامع البيان ١/٨٦ ـ ٨٩، والزجاج: معاني القرآن واعرابه ١/١٨. والقرطبي: الجامع لاحكام القرآن ١/١٥٤، والزركشي: البرهان ١/١٦٥، والسيوطي: الاتقان ٣/٢١.

٤ ـ انها تدل على معان، وكل حرف مقتطع من اسم او فعل، وقد روى عن ابن عباس ان معنى «الم»: انا الله أعلم، وروى عن غيره: الالف: مفتاح اسم الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، وان الميم مفتاح اسمه مجيد، وقال آخرون انّ هذه الحروف هي اسم الله الاعظم.

٥ ـ انها تدل على حساب الجمل، الذي ينبني على اساس ان لكل حرف في الترتيب الابجدي قيمة رقمية، فيكون كل حرف من الحروف المقطعة يدل على قيمته الرقمية فيستدل بذلك على آجال قوم او مدتهم.

٦ ـ ذهب بعض علماء العربية الى ان هذه الحروف استغني بذكرها عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً، لتدل على ان هذا القرآن مؤلف من حروف العربية التي منها كلام العرب، ليكون عجزهم عن القرآن ابلغ حجة عليهم.

٧ ـ روي عن قطرب «محمد بن المستنير ت ٢٠٦هـ» انه قال: يجوز: لما لغا القوم في القرآن فلم يتفهموه حين قالوا: «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه» (فصلت ٢٦) أنزل ذكر هذه الحروف، فسكتوا لما سمعوا الحروف طمعاً في الظفر بما يحبون ليفهموا ـ بعد الحروف ـ القرآن وما فيه، فتكون الحجة عليهم أثبت اذا جحدوا بعد تفهم وتعلم.

٨ ـ انها فواتح يفتح الله بها القرآن.

٩ ـ انها سر لا يمكن الوصول الى حقيقة معناه، وانها من المتشابه الذي أمرنا ان نؤمن به كما أنزل، كما بينت الآية الكريمة: «هو الذي انزل عليك الكتاب، منه آيات محكمات هن ام الكتاب، واخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون أمنا به، كل من عند ربنا، وما يذكر إلا اولو الالباب». (آل عمران٧).

جاء في تفسير القرطبي[٣٠٠]: قال عامر الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين: هي سر الله في القرآن، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه، ولايجب ان يتكلم فيها، ولكن نؤمن بها، ونقراها كما جاءت، وقال ابو حاتم: لم نجد

---

(٣٠٠) الجامع لاحكام القران ١/١٥٤.

الحروف المقطعة في القرآن إلا في اوائل السور، ولاندري ما اراد الله عز وجل بها.

١٠ ـ وفي السنين الاخيرة من وقتنا الحاضر ظهرت محاولة جديدة لدراسة الحروف المقطعة وبيان علاقتها بالسور التي تأتي في اوائلها، وتتلخص تلك المحاولة، التي تعتمد على الحاسب الالكتروني، في ان استهلال سورة ما بحروف معينة يقابله دائماً تفوق حسابي لمعدل توارد وتكرار هذه الحروف في السورة نفسها. ففي سورة «ق» والقرآن المجيد» مثلاً، نجد ان الحرف «ق» يتكرر في السورة بمعدل اعلى من باقي الحروف، ثم ان معدله في السورة هو اعلى معدل في سور القرآن على الاطلاق.

والشيء نفسه في «الم» في البقرة، حيث تأتي معدلات ورود هذه الحروف الثلاثة في سلم تنازلي من (أ) الى (ل) الى «م»، وبالترتيب نفسه، على هذا النحو:

(أ) وردت ٤٥٩٢ مرة.

(ل) وردت ٣٢٠٤ مرة.

(م) وردت ٢١٩٥ مرة.

وهكذا تطبق هذه القاعدة ـ بصورة عامة ـ على كل الحروف المقطعة[٢٠١].

وهذه ملاحظة مهمة ظلت مخبوءة الى وقتنا الحاضر، إذ اكتشفت بالحساب الدقيق لحروف القرآن، لتضع امام الناس دليلاً جديداً على ان هذا القرآن، من لدن حكيم خبير: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم، حتى يتبين لهم انه الحق» (فصلت ٥٣).

وكان الزركشي (ت ٧٩٤هـ) قد ألمح في كتابه «البرهان» الى شيء من هذه المحاولة الاخيرة، لكنه لم يعتمد الاحصاء والتتبع، وانما اكتفى بذكر ذلك على شكل ملاحظة عابرة حيث يقول[٢٠٢]: «وتأمل السور التي اجتمعت على الحروف المفردة: كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف، فمن ذلك «ق، والقرآن

---

(٢٠١) انظر التفصيل: مصطفى محمود: من اسرار القرآن ص٦١ وما بعدها.

(٢٠٢) البرهان ١/١٦٩ ـ ١٧٠.

المجيد، فان السورة مبنية على الكلمات القافية: من ذكر القرآن، وذكر الخلق، وتكرار القول... وغير ذلك واذا اردت زيادة ايضاح فتأمل ما اشتملت عليه سورة (ص) من الخصومات... وكذلك سورة «ن والقلم» فان فواصلها كلها على هذا الوزن، مع ماتضمنت من الالفاظ النونية».

★★★

ومهما قال العلماء والمفسرون في معنى الحروف المقطعة فانه لا يمكن القطع على احد تلك الاقوال بانه هو المقصود معناه دون غيره، لانه لم يرد نص يبينها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً، ولانه مامن قول سبق لبيان معناها إلا ويمكن القول فيه انه ليس اولى من غيره بالاعتبار ثانياً، لكن هناك اموراً جديرة بالملاحظة عند البحث في معاني هذه الحروف، منبا: ان معظم السور المفتتحة بالحروف المقطعة مكية النزول، إلا البقرة وآل عمران، ثم ان ما يرد بعد تلك الحروف في السور المفتتحة بها هو ذكر القرآن الكريم او ذكر بعض مايتعلق به، إلا في العنكبوت والروم، ثم الامر الاخير الجدير بالملاحظة هو ماكشفت عنه المحاولة الحديثة من بعض اسرار تلك الحروف، وان كانت لا تفسر كل شيء عنها، والقول بأن هذه الحروف من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تعالى لايمنع ذلك من دراستها ومحاولة كشف بعض اسرارها، اذا كانت الدراسة مبنية على اسس علمية واضحة.

الفصل الرابع
معرفة الناسخ والمنسوخ

١ ـ تعريف النسخ وبيان اهمية معرفته:

عرفت من قبل ان القرآن الكريم لم ينزل مرة واحدة، ولكنه انزل مفرقاً، على مدى سنين كثيرة، وعرفت ايضاً ان في ذلك التنزيل المفرق للقرآن حكمة تربوية عملية كبيرة، وهي اعداد النفوس المؤمنة حتى تتلقى الاحكام الشرعية بالتسليم والرضا، فكان حال المؤمنين كما قال الله تعالى: «انما كان قول المؤمنين اذا دُعُوا الى اللّه وَرَسُولِهِ ليَحكُمُ بَينهَم ان يقولوا سَمِعنَا واطعنا، وأولـئكَ هُمُ المفلِحون» (النور ٥١)، من تلك الحكمة ان الله تعالى جعل تطبيق الاحكام متدرجاً، خاصة تلك التي اخذت شكل عادات شعورية في المجتمع، فكان استئصال بعض مظاهر الانحراف الاخلاقي والاجتماعي قد تم في مرحلتين او ثلاث، والقرآن الكريم يوجه المسلمين خلال ذلك ـ وينقلهم الى الحكم الاخير في القضية.

والتدرج في تطبيق الاحكام الشرعية على ذلك النحو يسمى النسخ، وتسمى الآية التي تتضمن حكماً قد تغير منسوخة، والآية التي تتضمن حكماً غير حكمٍ آخر في آية اخرى تسمى ناسخة.

والنسخ في اصل اللغة يطلق على معنيين، الاول: الازالة، تقول العرب: نَسَخَتِ الشمسُ الظلَّ، اي ازالته وحلت محله، والثاني: نقل الشيء من مكان الى مكان، دون تغيير فيه، ومنه نسخ الكتاب، وهو ان تكتب كتاباً عن كتاب حرفاً بحرف وكلمة بكلمة[٣٠٢].

وتعريف النسخ في اصطلاح الشريعة، في القول المختار، هو: «رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه»[٣٠٣]. وهذا المعنى الشرعي يتصل بالمعنى اللغوي الاول للنسخ[٣٠٤].

---

(٣٠٣) ابن منظور: لسان العرب، مادة «نسخ».

(٣٠٤) مصطفى زيد: النسخ في القرآن الكريم ١/ ١٠٥ وعبدالكريم زيدان: الوجيز في اصول الفقه ص٢٢٩.
وانظر تفصيلات لمناقشة تعريف النسخ: الآمدي: الاحكام في اصول الاحكام ٣/ ١٠٠.

(٣٠٥) مكي بن ابي طالب: الايضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص٤٣.

والنسخ من الامور التي يسر الله بها على المؤمنين ـ وقت تنزيل القرآن ـ في تطبيق الاحكام، وقد قال الله تعالى «ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها، ألم تعلم ان الله على كل شيء قدير» (البقرة ١٠٦)[٣٠٦].

فهذه الآية تبين بيناً حاسماً في شأن النسخ، فالتعديل الجزئي وفق مقتضيات الاحوال ـ في فترة الرسالة ـ هو لصالح البشرية، ولتحقيق خير اكبر تقتضيه أطوار حياتها، والله تعالى خالق الناس، ومرسل الرسل، ومنزل الآيات، هو الذي يقدر هذا وهو الذي يختار الانسب لعباده، وهو الذي يعلم ما يصلح لهم في كل موقف، قال الله تعالى: «واذا بدلنا آية مكان آية، والله أعلم بما يُنَزِّل، قالوا: إنما انت مُفتر، بل أكثرهم لا يعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق، ليثبت الذين آمنوا، وهدى وبشرى للمسلمين» (النحل ١٠١ ـ ١٠٤).

ومعرفة الناسخ والمنسوخ في القرآن من الامور التي نص العلماء على ضرورة توفرها عند كل من يريد تفسير القرآن، او البحث في احكامه، وقالوا:[٣٠٧] «لا يجوز لاحد ان يفسر كتاب الله الا بعد ان يعرف منه الناسخ والمنسوخ، وقد رويت في ذلك اخبار عن عدد من الصحابة[٣٠٨].

٢ ـ الفرق بين النسخ والبداء:

لا يذهبن بك الخيال الى تصور ان النسخ نوع من البداء، وهو استصواب شيء عُلِمَ بعد ان كان غير معلوم، لان ذلك على الله غير جائز[٣٠٩]. والله سبحانه هو القائل: «واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل...» فالله يعلم ان المنسوخ

---

(٣٠٦) قرأ ابن كثير وابو عمرو من القراء السبعة «او ننساها» بالهمزة مع فتح النون والسين. وقرأ الباقون «ننسها» بغير همزة مع ضم النون وكسر السين. الداني: التيسير ص٦٦. وتاويل القراءة الاولى: نؤخرها فلا ننسخها. وتاويل القراءة الثانية يحتمل ان يكون من النسيان، وان يكون بمعنى الترك مثل قوله تعالى «نسوا الله فنسيهم» يعني تركوا الله فتركهم «انظر الطبري: جامع البيان ١ / ٤٧٥». وقال الامام الشافعي: ان معنى «ننسخ» ترك فرضه «الرسالة ص ٦٤». وفسر ابن عباس قوله تعالى «نأت بخير منها او مثلها» فقال: نجعل لكم مكانها انفع منها واخف عليكم، او مثلها في المنفعة. «النحاس: الناسخ والمنسوخ ص٦».

(٣٠٧) الزركشي: البرهان ٢/ ٢٩. السيوطي: الاتقان ٣/ ٥٩.

(٣٠٨) انظر: الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص٢٢٧. والنحاس: الناسخ والمنسوخ ص٤ ـ ٥.

(٣٠٩) ابن منظور: لسان العرب مادة «بدو».

سوف يكون منسوخاً قبل انزاله، لحكمة يعلمها، وهو الذي «يعلمُ خائنةَ الاعين وما تُخفي الصدورُ» (اغافر ١٩). وهو القائل: «ما أصابَ مِن مصيبةٍ في الأرض ولا في انفسِكُم، الا في كتاب، مِن قبلِ أن نبرأها» (الحديد ٢٢).

فالفرق بين النسخ والبداء هو النسخ معلوم عند الله تعالى وليس الأمر ان الله تعالى ينزل الآية او الحكم، ثم ينظر بعد ذلك هل ينسخه او يقره فهذا لا يجوز بحق الخالق سبحانه، بل ان الله ينزل الآيات ويعلم ما سينسخ منها، ويعلم الآيات الناسخة لها، حتى قبل ان ينزل القرآن. اما البداء فهو امر خاص بالبشر، ذلك ان الانسان قد يرى اليوم رأياً، ثم يبدو له ويتضح ان ذلك الرأي غير صواب، فيرجع عنه، وهو حين اعتقد ذلك الرأي اولاً، كان يتصور انه هو الحق الذي لا حق غيره، فاذا الامر يتكشف له بعد ذلك على غير ما اعتقد، وهذا خاص بالبشر لقصور العقل البشري عن الاحاطة او العلم بما سيقع في المستقبل، اما النسخ في القرآن فانه واقع بعلم الله وتقديره، رحمة بالناس وتيسيراً عليهم[٣١٠].

٣ ـ ما يجوز ان يقع فيه النسخ:

النسخ لا يقع الا في الإحكام، في الامر والنهي والحدود والعقوبات في احكام الدنيا[٣١١]. اما الاخبار ـ بكسر الهمزة ـ بما كان او ربما يكون فلا يجوز ان يقع فيه النسخ[٣١٢].

فالنسخ لا يقع في الامور الاعتيادية التي ينبني عليها الايمان، مثل توحيد الله تعالى، او اسماء الله وصفاته الحسنى، ولا يقع النسخ ايضاً فيما اخبرنا الله تعالى به في القرآن انه وقع، من اخبار خلق آدم واخبار الانبياء والامم الماضية، او انه سيقع من قيام الساعة وبعث الناس، وحسابهم، ثم الجزاء بالجنة او النار.

هذه امور لايتطرق اليها نسخ، وهي واقعة كما اخبرنا الله تعالى بها، ما وقع وما سوف يقع، لكن النسخ وقع في احكام الشريعة التي تتضمن امراً او نهياً، بحسب تقدير الله تعالى، وما جرى في علمه من المصلحة في ذلك للناس[٣١٣].

---

(٣١٠) انظر الحارث المحاسبي: فهم القران ص٢٦٠. والنحاس الناسخ والمنسوخ ص٩.

(٣١١) الحارث المحاسبي: فهم القران ص٢٥٩.

(٣١٢) النحاس: الناسخ والمنسوخ ص٢٥٨.

(٣١٣) انظر في هذا الموضوع: الحارث المحاسبي: فهم القران ص٢٢٢. والنحاس: الناسخ والمنسوخ ص٢٥٨. ومكي: الايضاح لناسخ القران ومنسوخه ص٥٦.

٤ ـ كيفية معرفة الناسخ والمنسوخ:

معرفة الآيات المنسوخة والآيات الناسخة في القرآن تتوقف على النقل الصحيح عن الصحابة، فالنسخ انتهى وقوعه بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهاء نزول القرآن، ولا يقع النسخ في احكام الشريعة بعد ذلك «انما يرجع في النسخ الى نقل صريح من رسول الله صلى الله عليه وسلم او عن صحابي يقول: آية كذا نسخت كذا، وقد يحكم به عند وجود التعارض المقطوع به، من علم التاريخ. فيعرف المتقدم والمتأخر، ولا يعتمد في النسخ قول عوام المفسرين، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح، ولا معارضة بينة، لان النسخ يتضمن رفع حكم واثبات حكم تقرر في عهده صلى الله عليه وسلم والمعتمد في النقل الصحيح والتاريخ دون الرأي والاجتهاد».

٥ ـ حكم الآيات المنسوخة:

وما نسخ من القرآن الكريم من آيات حكمه في التلاوة حكم الآيات غير المنسوخة، فهو مثبت في المصحف متلو بالالسنة، فالآية الناسخة والآية المنسوخة كلتاهما كلام الله سبحانه، واجب على العباد ان يؤمنوا به انه حق، وانه من القرآن، وانه ليس هناك من فرق بين الآية الناسخة والآية المنسوخة سوى ان الثانية سقط فرضها اي حكمها لكن نصها ثابت يتلى مثل سائر القرآن[٣١٤].

وقد ذكرنا من قبل الحوار الذي وقع بين عثمان بن عفان وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما فقد روى البخاري عن عبدالله انه قال: قلت لعثمان بن عفان «والذين يُتَوَفَّوْنَ منكم وَيذَرونَ أزواجاً» قد نسختها الآية الاخرى، فلم تكتبها؟ قال: يا ابن اخي، لا يغير شيئاً منه من مكانه[٣١٥]. فالآية المنسوخة مثل الآية الناسخة في كونها آية من القرآن مكتوبة في المصاحف جارية على الالسنة في التلاوة[٣١٦].

---

(٣١٤) السيوطي: الاتقان ٣/٧١.

(٣١٥) انظر الحارث المحاسبي: فهم القرآن ص٢٦٦.

(٣١٦) انظر ابن حجر: فتح الباري ٨/١٩٣ و٢٠١.

٦ ـ من امثلة النسخ:

«وضوع النسخ في الشريعة الاسلامية عامة، والنسخ في القرآن خاصة، حظي بجهود كبيرة من العلماء المسلمين، فكتبوا في الموضوع الكتب الكثيرة التي بينوا فيها معنى النسخ واحكامه، والآيات المنسوخة والناسخة، وما اختلف فيه العلماء من ذلك، ولعل اشمل كتاب معروف اليوم في ذلك هو كتاب «النسخ في القرآن الكريم» للدكتور مصطفى زيد. ويكفيك هنا ان تطلع على مثال واحد من امثلة النسخ في القرآن، لكي تتضح لك الحكمة التشريعية التي تحققت وما كان في ذلك من المصلحة للمسلمين.

كان شرب الخمر معروفاً بين العرب قبل الاسلام، وشاء الله تعالى ان يطهر مجتمع المؤمنين من هذا المرض الخطير، الجالب لكل شر مستطير. والامر او النهي حين يتعلق بقاعدة من قواعد التصور الايماني اي بمسألة اعتقادية، فان الاسلام يقضي فيها قضاءً حاسماً منذ اللحظة الاولى، ولكن عندما يتعلق الامر او النهي بعادة وتقليد او بوضع اجتماعي معقد، فان الاسلام يتريث به ويأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج، ويهيىء الظروف الواقعية التي تيسر التطبيق.

وقد كان الامر في الخمر، وكذلك في الميسر، امر عادة والف. والعادة تحتاج الى علاج. فبدأ القرآن بتحريك الوجدان الديني والمنطق التشريعي في نفوس المسلمين، بان الاثم في الخمر والميسر اكبر من النفع. وفي هذا ايحاء بأن تركهما هو الاولى. قال الله تعالى: «يسألونك عن الخمر والميسر، قل: فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما اكبرُ من نفعهما» (البقرة ٢١٩).

ثم جاءت الخطوة الثانية بنزول آية سورة النساء، وهي قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وانتم سُكَارَى، حتى تعلموا ما تقولون» (النساء ٤٣). والصلاة خمسة اوقات في اليوم معظمها متقارب لا يكفي ما بينهما للسكر والافاقة، وفي ذلك تضييق لفرص تعاطي الخمر، وكسر لعادة الادمان عليها.

حتى اذا ما تمت هاتان الخطوتان ونفرت نفوس المسلمين من الخمر جاء النهي الجازم الاخير بتحريم الخمر والميسر وغيرهما في قوله تعالى: «يا ايها الذين آمنوا انما الخمرُ والميسرُ والانصاب وَالازلامُ رجْسٌ مِنْ عَملِ الشيطانِ فاجتنبوه، لعلكم

تفلحون. انما يريدُ الشيطانُ ان يُوقِعَ بَينَكمُ العداوةَ والبغضاء في الخمرِ والميسرِ ويُصدُّكم عن ذِكْرِ اللهِ وعن الصلاةِ، فهل انتم منتهون» (المائدة ٩٠ ـ ٩١).

وبذلك نسخت آيات سورة المائدة حكم الآيات السابقة في الخمر، فحرمت الخمر، وانتهت تلك العادة في المجتمع المسلم. ولا يمكن لاحد ان يحتج بآية سورة النساء على جواز شرب الخمر في غير اوقات الصلاة، لانها منسوخة بآية المائدة التي حرمت شرب الخمر تحريماً مطلقاً[٢١٧]. وقد قال من كان يشربها من المسلمين حين سمع «فهل انتم منتهون؟»، قال: انتهينا[٢١٨].

وكان وفد ثقيف حين قدم المدينة، سنة تسع من الهجرة، طلب رئيسهم عبد ياليل بن عمرو من رسول الله صلى الله عليه وسلم في امور ذكرها، ان يترك لهم شرب الخمر، بعد ان يسلموا، قال عبد ياليل: افرايت الخمر؟ فإنها عصير اعنابنا، لابد لنا منها، قال صلى الله وسلم فان الله قد حرمها، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية «انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس...» الآية[٢١٩].

وهكذا اتى المنهج الرباني في بناء العقيدة وتهذيب النفوس هذه النتيجة الباهرة في اقتلاع عادة شرب الخمر من نفوس المؤمنين، وتخليص المجتمع من شرورها وآثامها.

---

(٢١٧) انظر النحاس: الناسخ والمنسوخ ص٢٩، ١٠٧.

(٢١٨) الطبري: جامع البيان ٧/٢٣.

(٢١٩) انظر الواقدي: كتاب المغازي ص٩٦٦ ـ ٩٦٧.